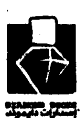
1

التجربة الملعونة

بقلم:

محمد سامي





ساعات الخطر
1
التجربة الملعونة

ساعات الخطر

*

التصحيح اللغوي:

أ. محمد عيد

*

الإشراف العام:

أ. محمد سامي

م. سند راشد دخيل

*

رقم الإيداع:

2007 / 13619

***

دار ليلى للنشر والإعلان- 23 شارع السودان- الدقي- الجيزة.
هاتف: 3370042 (02- 002) محمول: 0123885295 (002)
الموقع: www.darlila.com
دايموند بوك- الكويت- هاتف: 7555439 (00965)
الموقع: www.diamond-book.com

الطاقة..

حلمُ البشر منذ سنوات عديدة..

الطاقة التي حلم بها (آينشتاين)، لتنقلنا عبر الزمن، والتي حلم بها (جيري سيجال) لتحولنا إلى الرجل الخارق..

الطاقة يا سادة..

الطاقة التي تدير جهاز الحاسوب خاصتك، وسيارتك ومصنعك..

والتي تدير الإنسان أيضًا!..

فما الذي يحدث لو تدفقت الطاقة بلا حدود إلى جسدك؟..

دعك من الحقيقة الوحيدة والثابتة، التي لا جدال فيها، ألا وهي أنك ستموت فورًا..

دعنا نتصور -مجرد تصور- أن هذا حدث؟..

ما النتيجة؟..

لقد شغل الدكتور (زهران عبد الله) نفسه بهذا الأمر، وقضى فيه سنوات عمره كلها، دون مبالغة..

ولقد اكتشف الطاقة الآمنة، المناسبة للبشر..

تلك التي لا تقتل..

وكي يتأكد من هذه الطاقة، كان -كعادة العلماء- بحاجة إلى فأر تجارب..

فأر بشري..

ولم أكن أتصور في حياتي كلها، أن مكافحًا مسكينًا مثلي، حاصل على الثانوية العامة بمجموع ضئيل، ويعمل سكرتيرًا -أو ساعيًا لو شئت التعبير- للدكتور (زهران)، سيتحول إلى ذلك الفأر البشري..

لست أدري، هل كنت أحمقًا بالفعل يوم أن قبلتُ

عرضَ الدكتور بتجربة نظريتهُ العلمية عليّ؟..

هل كانت كراهيتي لقصص الخيال العلمي السخيفة، دافعًا لي - خاصة مع ذلك المبلغ المغري الذي عرضه عليّ؟.. والسؤال الأهم: هل منحني (زهران) نعمة، أم نقمة؟.. لا أدري!.. ويبدو أنني لن أدري!!..

بدأتم تتساءلون عن الأمر؟..

حسنًا.. لقد بدأ كلُ شيء كالتالي..

* * *

1- ما الذي سأخسره؟

الألم..

الألم الممضي يمزق رأسي..

أصحو من نومي متأخرًا كعادتي -أنا الذي أنام صباح كل يوم- وتمتد يدي بتلقائية إلى علبة السجائر، فأشعل واحدة..

سعال..

أضغط بكفي على صدري، وأنا أكافح قوة السعال التي تحرق رئتيّ، ثم ألقى السيجارة في المطفأة مشتعلة، متوجهًا إلى دورة المياه..

طقوسي اليومية المعتادة..

أغادر الحمام، لألحق بالثلث الأخير من السيجارة..

امتص ما بقي منها بجشع، ملقيًا تحية الصباح على (الحاجة)، فتغمغم:

- صباح النور.. ألن تكف عن التدخين (على الريق)؟

كوب ضخم من الشاي -يحلو للآخرين أن يطلقوا عليه (مَجّ)- وسجائر من جديد.. مع كل امتصاصة جشعة للسيجارة، يهدأ السعال!!.. أعابث مفاتيح لوحة تحكم الكمبيوتر، وأدلف إلى الإنترنت متصفحًا جديدَ المواقع والبريد الإليكتروني.. حياةٌ مملة ونمطية لو شئت الحق، لكني أحبها واعتدت عليها!..

وجدت فيها سكوني وراحتي..

قررت أخيرًا -بعد أن تجاوزت الثلاثين- أن الفشل الذي لاحقني طيلة عمري، أفاد ولم يضر..

لا مال أخشى عليه.. لا زوجة ولا أبناء ولا مسئوليات..

فقط أمي العجوز المنهكة دومًا..

صحتي محدودة، في طريقها للزوال يومًا بعد يوم، وأعيلها على هذا بتدخيني أكثر من علبتيّ سجائر في اليوم..

أحاول التحديق في شاشة الكمبيوتر، مغالبًا إحساس عينيّ الحارق بالرغبة في النوم، ولم تُغمضا لخمس ساعات!

أضغط رابط الرسائل الجديدة في البريد، وأقرأ.

* * *

" 3..2..1.. إطلاق"

مع انتهاء العدّ التنازلي، هدرت المحركات القوية، وانطلقت غلالة شفافة من المادة المضادة للجاذبية، تحيط بذلك القمر الصناعي، وتحرره من أسر الجاذبية الأرضية..

(Earth)، القمر الصناعي الصغير الذي أطلقته الوكالة الأمريكية لأبحاث الفضاء (NASA)، في مدار

جديدٍ بعيدٍ عن المنظومة الشمسية لكوكبنا، لاستكشاف شكل الحياة في تلك المنطقة، مِن ذلك الفضاء الرحب المحيط بنا.. وساعد في هذا، تطور العلوم والتكنولوجيا الرهيب.. كما أنه اختبارٌ حقيقيٌ وفعالٌ لمادة (A.G) المضادة للجاذبية.

ومع تحرره، تم تشغيل الصواريخ لتعطيه قوة الدفع، التي جعلته يختفي من مدار كوكب الأرض في دقائق معدودة.. وهللّ العلماء والفنيون في غرفة التحكم، بوكالة (ناسا) لأبحاث الفضاء..

لقد نجح الإطلاق، وهذا يعني نجاح عملهم..

وصاح بهم الدكتور (خالد حسان)، نائب رئيس الوكالة:

- هدوءًا يا رجال.. لا زال أمامنا عملٌ كثيرٌ..

ثم صفق بيديه، واستطرد:

- كلٌ إلى موقعه.. هيا.

على الفور سارع كلّ منهم إلى عمله، على حين استغرق هو في متابعة كافة التقارير التي ترد من القمر.

* * *

اسمه (زهران عبد الله)..

مجرد اسم لا يعني لك -أو لي بطبيعة الحال- أيَ شيء..

"عالِم.. لكنه من طراز عجيب.. هل تعرف أولئك العلماء (المخابيل) الذين يظهرون في الأفلام بشعر منكوش وعوينات سميكة وشرود دائم؟!.. هو أقرب إليهم".

هكذا قال لي (عابد)، بعد أن تركتُ الجريدة التي كنتُ أعمل بها، إثر مشاجرة لطيفة مع رئيس التحرير الملعون.

- وما الذي يريده؟.. أن ينتقل إلى (العباسية)؟!

- لا يا ذكي أفندي.. بل يريد (مدير مكتب).

- والله؟!.. ألم يجد سواي بمؤهلي الأدبي هذا، ليدير مكتبه؟.. مثل ذلك الرجل الذي تتحدث عنه بحاجة إلى متخصص!.. لا حاصل على الثانوية العامة.

- الرجل لا يريد عالِمًا يساعده في أبحاثه!.. هو فقط يريد شخصًا أمينًا، يعمل على ترتيب مكتبه وحراسة معمله، وتنظيم بعض الأمور.

قلت بمرارة:

- أتعني.. ساعي؟

- يا أحمق.. الرجل يقطن في (فيللا) من طابقين.. الأرضي حوّلهُ إلى معمل، والعلوي إلى مسكن.. لديه بالفعل طاهٍ يقضي له كل أموره، وسائق لقضاء (المشاوير).. لكنه يحتاج إنسانًا متعلمًا ومثقفًا يدير له حياته، وينظمها.. يرتب أوراقه ومواعيده.. سمّه سكرتيرًا شخصيًا.. مديرَ مكتب.. ساعيًا يا أخي لو شئت!.. المهم الراتب.. الرجل يعرض خمسمائة جنيهًا كراتب مبدئي،

بخلاف أنك ستأكل وتشرب وتلبس من عنده.. أي أنك ستوفر راتبك، وتحيا كأمير.. ما الذي تريده أكثر من ذلك؟.

صمَتُّ لحظات مفكرًا، ثم قلت بصوت لم تنتهِ منه المرارة:

- على كلٍّ، ما الذي سأخسره؟

* * *

هل رأيت ذلك الفيلم الكوميدي بطولة (إسماعيل يس) و(حسن فايق)؟..

للأسف لا أذكر اسم الفيلم، لكنه كان عن عالم مجنون -(حسن فايق)- يجري تجاربَ لتغيير أصوات الحيوانات، وتركيبها على بعضها!.. مثال ذلك، صوت قطة على جسد كلب، والعكس..

أشياء من هذا القبيل..

لو كنت رأيت الفيلم، ستوفر عليّ عناء وصف

الدكتور (زهران) لك..

الرجل -بلا شك- تعدى منتصف الخمسينات، إن لم يكن في الستينات.. مُنحني الظهر قليلاً، مما يدل على انكبابه لساعات طويلة -وفترة طويلة من حياته كذلك- على الكتب.

يرتدي عوينات سميكة بشكل مبالغ فيه، كأنما نظره قد ذهب بالفعل!.. تعجبت من رجل بمثل هذا الثراء والعلم، لا يستخدم العدسات اللاصقة، التي أصبحت كل فتاة تكدّ شهرًا كاملاً في عمل ما؛ لتحصل على واحدة ملونة لمجرد التزين!.

ناهيك عن أن إجراء عملية بسيطة في عينيه، ستعيدهما كما كانتا، خاصة وقد تطورت الجراحات في ظل التقدم الذي نحياه.

نظر إليّ نظرة فاحصة، دقق خلالها في جسدي كله، حتى خيلّ إليّ أنه سيقرأ أفكاري، ويكتشف كم كنت حقيرًا

حين دخنت السيجارة في دورة المياه منذ خمس عشرة سنة، وادعيت أن شقيقي هو الذي فعلها.

ابتسمت للفكرة، وواريت ابتسامتي سريعًا، على حين قال الدكتور بصوت واضح الإنهاك:

- هل أطلعك (عابد) على مهام عملك؟

اندفع (عابد) يقول، وهو يفرك كفيه بحماس واضح:

- بالتأكيد يا دكتور.. لا تقلق.

- أهم شيء هو الهدوء التام.. أريد منك لو "قام زلزال"، أن تداري عني صوته واهتزاز الأرض.. خاصة وأنا في المعمل.

صباح (المانخوليا)!!!!..

نظرت إلى (عابد) بحنق، فأسرع الأخير يجيب:

- هو قادر على فعلها يا دكتور.. لا تقلق.

ناوله الدكتور ورقة مالية لا بأس بها أبدًا، ثم لوّح

بيده دلالة على رغبته في أن (ننكشح) من أمامه.

قبضتُ على ذراع (عابد) بقوة، احتقن وجهه لها وهو يكتم آهة ألم خشية أن تفرّ من بين شفتيه، فيسحب الدكتور (النفحة) منه، وخرجنا مع الطاهي من غرفة المكتب.

صحت بصوت مكتوم:

- *"منك لله"*.. هل هذا هو عالِمك المجنون؟.. أتيت بي هنا من أجل حفنة جنيهات؟.. بـ (تسمسر) بي؟

- *ششششششت*.. هل جننت؟

- بالطبع جننت.. أتريدني أن أعمل مع هذا المختلّ؟

وضع يده على كتفي مهدئًا، وأشار بيده الأخرى للطاهي، فاقترب منا، و(عابد) -الوغد- يسأله:

- قل لي يا عم (عبده) -طبعًا كل الطهاة في الأفلام أسماؤهم (عبده)، فلِم نشذّ ها هنا عن القاعدة- ما رأيك

في الدكتور؟

- ابنُ حلال..

يا سلام!.. ومن قال أنه (ابن حرام)؟..

تابع عم (عبده):

- قلبه طيب.. وكريم.. فقط لا يحب الضوضاء ولا الإهمال.

ثم نظر إليّ قائلاً:

- إذا التزمت بهاتين النقطتين، ستحيا هنا سعيدًا.. وستحمد الله -عز وجل- أنك تعمل مع الدكتور.

صمتُ وأنا أدير الكلمات في رأسي، ولم أجد ضيرًا في هذا.. ثم مَن قال أنني مهملٌ؟.. لقد تشاجرت مع "الأسطى" لأنه كان مهملاً، ولم أرضَ بالإهمال.. كما أنني لست من هواة (الإستريو) بصوت عالٍ على أية حال.

لن أخسر شيئًا ها هنا..

إذاً.. فلأجرب.

* * *

الحق يقال أنني طوال الشهر الأول من عملي هاهنا مع الدكتور، لم أندم ولا لحظة واحدة على قبولي ذلك العرض..

كنت بطبعي أكره أن يسئ إليّ أحدهم، وعلمتني الحياة أن أكثر من 90% من الإساءات التي يتعرض لها الشخص في حياته، سببها تصرفاته هو لا الآخرين.. تمامًا كالطالب الذي يرسب آخر العام، لأنه لم يستذكر دروسه..

لذا كنت أقوم بما هو مطلوب مني على أكمل وجه، بل وبزيادة أيضًا، حتى لا يتهمني أحدٌ يومًا ما بالتقصير..

وكان الدكتور (زهران) نموذجًا للرقيّ.. عندما وجدني ملتزمًا، أخذ يعاملني باحترام.. الحق أنه يعامل كل من لديه باحترام..

ومع أول أيام الشهر التالي، فوجئت به يسلمني مهمة صرف الرواتب والمكافآت، لأنه لا يطيق أن يقوم بتلك المهمة بنفسه!..

حمدت الله تعالى أن ربّاني والداي على الأمانة.. لن أخون الرجل أبدًا..

* * *

2- العاصـفة

في مبنى رئاسة الجمهورية، كانت الأمور توحي بأن كل شيء قد انقلب رأسًا على عقب..

غير المطلعين على الأمور كانوا- بحق- قلقين من احتمال أن تكون حرب على الأبواب..

فرنيسا المخابرات العامة والحربية شبه مقيمين بالمبنى منذ ليلة البارحة.. وقادة الجيش على اتصالات مستمرة بوزير الدفاع، الذي يحضر اجتماعًا للجنة الأمن القومي مع الرئيس، لتقديم تقارير عن الحالة العسكرية، والتطورات أولاً بأول..

جهاز الشرطة بأكمله منتشر بكل حارة داخل الدولة، وحالة طوارئ سرية تم إعلانها بكل الأجهزة..

وفي غرفة الاجتماعات، جلس الرئيس بهدوء، لم ينجح في إخفاء احتقان وجهه، وهو يستمع لملخصات التقارير التي يلقيها الحاضرون أمام اللجنة، ويطالع كمّا من الورق والصور التي تم التقاطها بالأقمار الصناعية..

لم يكن أحدٌ -غير المتواجدون بالغرفة، وقلة قليلة خارجها- يمكنه أن يستنتج الكارثة الوشيكة..

فقد تم إحاطة الأمر بالسرية التامة، وأنظمة الحُكم التزمت الصمت، والتعاون فيما بينها لمواجهة ذلك الخطر الرهيب..

الخطر الذي حمله للأرض، قمرٌ صناعي.

* * *

بعد أن استقر القمر في مداره المخصص له، وبدأ في جمع المعلومات وإرسالها للأرض، حيث يتلقاها فريقٌ من العلماء، يعمل على تحليلها وإدخال البيانات أولاً بأول للكمبيوتر، بدا كما لو أن هناك عاصفة صغيرة تتكون فوق

شمال قارة (أفريقيا)..

في البداية، بدا الأمر كظاهرة طبيعية، لا تستدعي القلق.. صحيح أن (عاصفة) أمرٌ نادرُ الحدوثِ في منطقة جغرافية مثل (شمال أفريقيا)، إلا أنه ممكن الحدوث.. خاصة وأن شهر (نوفمبر) قد انتصف..

دعك من أن الطقس يزداد سوءًا بشكل مطرد..

لهذا لم يسترع الأمر انتباه خبراء الطقس على مستوى العالم ككل، وفي (ناسا) على وجه التحديد..

كان الشكل العام للخرائط الجوية، يحدد تكون العاصفة في محيط مجموعة دول كاملة.. من (فلسطين) - والتي صار اسمها على الخرائط العالمية (إسرائيل)- حتى (ليبيا)، مرورًا بالدول التي بينهما..

لكن.. لم تمر أربع وعشرون ساعة على بدء تكون العاصفة، إلا وحدث أمرٌ عجيب..

كانت العاصفة تتغير باستمرار، لتقلص من مساحة

انتشارها، وتكثف تواجدها تدريجيًا فوق البقعة الجغرافية التي تتوسط كوكبنا..

تلك البقعة التي حملت على الخرائط اسم (جمهورية مصر العربية)..

وهنا أصبح الأمرُ غريبًا..

وعجز العلماء عن تفسير تلك الظاهرة..

واحتارت (ناسا)، فدفعت بقمرها الصناعي الجديد (Earth) لترك كل مهامه، والتفرغ التام لتصوير وتحليل تلك الظاهرة..

وكانت الكارثة..

أجهزة القمر الصناعي سجلتْ مواد حمضية خطيرة في تكوين تلك العاصفة، بالإضافة إلى نسبة ملوحة مرتفعة!..

واندفع العلماء -بناءً على هذه المعلومات- في

محاولة لمواجهة الأمر بأي شكل من الأشكال..

وهتف الدكتور (خالد حسان) بهلع:

- كيف؟.. منذ متى والعواصف والأمطار تحتوي على أحماض وملوحة؟

هز رئيس قسم الأرصاد الجوية بالوكالة، الدكتور (جون سميث) كتفيه بحيرة بالغة، وأجابه:

- على قدر علمنا، هذا لم يحدث من قبل قط.. ربما تحتوي العواصف على الأحماض والأملاح -إذا تعرضت لمسبب لها- إلا أن هذا - دائمًا- يكون بنسبة بالغة الضآلة، لا نهتم بها على الإطلاق.. لكن هذه العاصفة!!.. أنا لم أرَ مثل ذلك قط.. خمسون بالمائة دفعة واحدة؟.. كيف؟.

عاد الدكتور (خالد) يهتف به:

- أنت الذي تسألني؟!..

نظر إليه (جون) بحيرة وقلق، ثم تمتم:

- المشكلة أن... أن...

صمت للحظات، وهو يتبادل نظره مع نائبه، مما دفع قلق الدكتور (خالد) إلى ذروته، فهتف:

- أن ماذا؟

أجابه النائب:

- حجمُ العاصفة وكثافتها ضخمٌ للغاية.. كما أن سرعة تحركها الآن أصبحت كبيرة.. والأمر الأكيد أنها ستغطي (مصر) كلها، خلال نصف يوم فقط.. ومع غزارة الأمطار القاتلة سـ...

بتر عبارته وهو ينظر للدكتور (خالد)، فاتسعت عينا الأخير في هلع..

لم يكن يحتاج إلى تكملة الحديث..

كان الأمر واضحًا..

هذه السرعة وهذه الأمطار القاتلة، تعني الأمر الذي يخشى سماعه..

يعني انتهاء كافة أشكال الحياة في دولة كاملة..

أكبر كارثة بينية عرفها العالم في تاريخه المدون كله..

ودمار (مصر).

* * *

كنت أجلس مسترخيًا على الأريكة المريحة في منزل الدكتور (زهران)، أطالع فيلمًا مشوقًا من تلك الأفلام التي تعتمد على الخيال العلمي، وأدثر نفسي جيدًا، وصوت الرياح الشديدة بالخارج، ينذر بجو شتوي، لم أرَ مثله منذ سنوات على ما يبدو، حين فوجئت بالدكتور يقف عند رأسي مثل ملاك الموت..

هببتُ من رقدتي في هلع، ولمحت نظرة الازدراء في عينيه، وقال لي وهو يمط شفتيه:

- هذه الأشياء هي التي أفسدت عقولكم.. جيلٌ فاشل.

ازدرت لعابي، وأنا أشعر بارتباك كبير.. كانت أول مرة يحدث فيها أمر كهذا، وخشيت ردة فعل الدكتور.. لكنه استدار بهدوء شديد، وهو يتابع:

- الحق بي في معملي.

أطفأتّ الفيلم -وأنا ألعن الأخوين (لوميير) واليوم الذي ابتكرا فيه السينما- ولحقت به، ورأيته يراجع بعض الوصلات غريبة الشكل، على أجهزة أغرب شكلاً وحجمًا، وكلها متصلة بمقعد، مما جعلني أتذكر مشهد الإعدام في فيلم (الميل الأخضر)!..

"نعم يا دكتور؟"

غمغمت بصوت منخفض، فأشار إلى المقعد دون أن ينظر لي، أو يتوقف عما يفعله، قائلاً:

- اجلس.

هل سيعدمني لمجرد مشاهدة فيلم؟..

لقد حافظت حتى على انخفاض درجة الصوت!!..

لم أجادله، وجلست..

أنهى ما في يده بعدها بدقائق، ثم استدار ينظر لي لحظات، دون أي كلمة، مما أورثني شعورًا بالارتباك، حاولت مداراته، إلى أن قال:

- أخبرني يا (عصام)..هل أنت راضيًا عن حياتك هكذا؟

غمغمت بارتباك:

- الحمد لله يا دكتور..

- أعني، هل ستظل تعمل لدي طيلة حياتك؟.. أليس لك طموح أو غاية؟

صمت للحظات، شرد خلالها بصري بعيدًا، ثم قلت:

- لا.. لقد استهلكت كل فرصي قديمًا، واستسلمت.

- ومن قال لك أن فرصك انتهت؟

- أنا.

- وما أدراك؟

ابتسمت بسخرية مريرة، وقلت:

- كل ما رأيته في حياتي وعانيته.

ربت على كتفي بحنو، وقال:

- يا ولدي.. علينا أن نسعى دومًا.. وليس علينا أن نبلغ النجاح.

قلت بسخرية:

- وما فائدة السعي إذًا، ما دام سيكلل بالفشل؟

تنهد، وعاد يصمت للحظات، ثم قال:

- (عصام).. أريد أن أعرض عليك عرضًا، بشرط.. ألا تخبر به أي شخص مهما كان، سواء قبلت أم رفضت.

نظرت إليه باهتمام، وقلت:

- أي عرض؟

- عدني أولاً.

وعدته بما طلب، فالتقط نفسًا عميقًا، وجلس أمامي على مقعد خشبي قصير قائلاً:

- هل تعرف الطاقة يا (عصام)؟

نظرت إليه بحيرة، وقلت:

- الطاقة؟

أومأ برأسه إيجابًا، وهو يستطرد:

- نعم.. تلك التي تدير كل ما هو حولنا.

قلت بارتباك:

- آآ..أعرفها.. ليس بشكل علمي، ولكن أفهم ما تتحدث عنه يا سيدي.. وأذكر القانون: "الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم".

ابتسم وهو يهز رأسه في أسى، فصمت أنا تمامًا، وتركته حتى قال:

- اسمع يا عصام.. الطاقة مشكلة العالم الحديث الآن.. أسعار البترول ومشتقاته كلها في ارتفاع جنوني منذ عام 2026م، وحالة من عدم الاستقرار.. الكهرباء كذلك.. هذه صور من المواد التي تمدنا بالطاقة.. التدفئة والحركة والإضاءة وغيرها..

شهق ليلتقط أنفاسه، واستطرد:

- العالم كله الآن على استعداد لبذل أي شيء للتوصل إلى حلول جديدة للطاقة.. ولقد شغلني هذا الأمر منذ زمن بعيد.. منذ شبابي، حين دخلت كلية العلوم.. والآن، وعمري أوشك على الانتهاء، توصلت لاختراع رائع.. اختراع سيمنح ممتلكيه قوة هائلة.. سرًا جديدًا من أسرار الطاقة.. وهو - قياسًا بغيره- غير مكلف -خاصة للدول- وأنا أنوي أن أحتفظ بهذا السر، حتى أطمئن لنجاح

التجربة، ثم أسلم هذا الاختراع إلى الدولة التي تستحقه، وتستخدمه في الخير..

سألته بصوت خفيض:

- دولة؟.. أي دولة؟

- (مصر) بالتأكيد يا (عصام).. بلدي..

أومأت برأسي دونما معنى، على حين استطرد وهو ينهض:

- ولقد جاء الآن وقت تنفيذ التجربة.. وأنا بحاجة إليك.

سألته في دهشة:

- بحاجة إليّ.. وما دوري في هذا يا دكتور؟

لوح بيديه وهو يبتسم:

- مجرد دور بدني يا ولدي.. أنا رجلٌ منهكٌ وعجوز..

سأخبرك ما تفعله أنت.

هززت كتفي بلامبالاة، وأنا أقول:

ـ هذا عملي هنا على كل حال.

ابتسم الدكتور (زهران)، وانعكس ضوءُ البرق وهو يلتمع فوق وجهه.

* * *

3- الذي سأخسره..

ارتفع وقعُ خطواتِ الدكتور (خالد حسان) في ممرات (ناسا) ليقطع هدوءَها، ويدل على شدة توتر الرجل، الذي اندفع يقتحم مكتب رئيس قسم الأرصاد الجوية بالوكالة، وهو يسأل بلهفة:

- هل من جديد؟

نظر إليه الرجل بتعاطف وهو يقول:

- الخبراء لاحظوا بطئًا في سرعة العاصفة، الأمر الذي يعني تأجيل حدوثها حوالي ثلاث ساعات.

- اللعنة.. هل هذا هو الجديد؟.. ألا توجد طريقة لمنع تلك الكارثة.

حرك الرجل رأسه علامة على النفي، قبل أن يقول:

- للأسف، ليس في أيدينا ما نفعله.. لقد أبلغنا الحكومة المصرية بالأمر، وكذلك الأمم المتحدة ووكالات الإغاثة.. وحكومات العالم تتابع الموقف، وتستعد لمعاونة (مصر) عند الحاجة.

ضرب الدكتور (خالد) براحة يده على سطح زجاج المكتب بعنف، وهو يهتف:

- أي حاجة؟.. الحياة ستمحى في (مصر) بسبب تلك العاصفة اللعينة.. ما الذي يمكن إنقاذه بعدها.

أسرع رئيس المركز يعاونه على الجلوس، وهو يهتف:

- اهدأ يا دكتور (خالد).. كما قلت لك؛ ليس في أيدينا ما هو أكثر من ذلك.

تطلع الدكتور (خالد) في عينيْ رئيس المركز المتعاطفتين، قبل أن تغرورق عيناه بالدمع، وعقله يطرح التساؤل الرهيب:

"هل هذه هي النهاية فعلاً يا (مصر)؟"

وبقيَ سؤاله الرهيب، معلقًا بلا جواب.

* * *

التمع البرق من جديد -ربما للمرة العاشرة في تلك الليلة الغريبة- مما زاد من شدة توتري، وتطلعت ببصري خارج النافذة، وأنا أعمل على تثبيت الأقطاب إلى جسد الدكتور (زهران)، وشعر هو بتوتري، فغمغم بصوت هادئ:

- لا تقلق يا فتى.. الأمر بسيط.

سألته وصوتي لم يهدأ توتره:

- هل أنت متأكد يا دكتور ألا ضرر في الأمر؟.. أعني.. هل تحتمل صحتك إجراء تلك التجربة؟

ابتسم ابتسامة شاحبة، وقال:

- حتى لو لم تحتمل.. ما الذي يفرق؟

فهمت على الفور ما يعنيه، فآثرت الصمت، وحاولت التركيز في تعليماته التي يلقيها عليّ.. هذا الـ (كابل) هناك.. تلك الأقطاب هنا.. جهز محول الكهرباء..

الكهرباء!!.. من هذا المجنون الذي يُدخل الكهرباء إلى خلايا جسده؟..

بل من هذا المجنون الذي يستخدم الكهرباء، في ليلة عاصفة مثل هذه؟..

المهم أن الأمور كلها تمت كما يريد، والتقطت نفسًا عميقًا، وأنا أنظر إليه، منتظرًا أوامره بالبدء..

وارتجف جسدي حين أومأ برأسه لي في هدوء، وبيدٍ مرتعشة مددت إصبعي لأضغط ذلك المفتاح..

المفتاح الذي لم أدرك حينها أنه سيغير الكثير في حياتي وحياة آخرين..

* * *

حياتي بأكملها مرقت أمام عينيَّ..

ذكريات الطفولة الباسمة، وشهادة الثانوية العامة المتواضعة، ومحاولات فاشلة في التعليم، ومحاولات أكثر فشلاً في العمل، ووفاة والدي وزواج شقيقتي، وصحة أمي..

ثم المفتاح..

ظلّ يتضخم أمام عينيَّ، حتى ملأ الصورة كلها، وعبره وجه الدكتور (زهران) الصارخ بالألم، كأنما شياطين الأرض والجحيم تعمل على تعذيبه..

ثم فجأة أظلمت الدنيا أمام عينيَّ.

وأضاءت فجأة أيضًا..

ذاك السواد الأعظم الذي وجدت نفسي فيه منذ لحظات، تحول إلى نور مبهر!..

وبعد لحظات من التركيز، وجدت أنني في غرفة

بيضاء الجدران والمفروشات، وإلى جواري أجهزة طبية متصلة بجسدي، تصدر ذلك الصوت الرتيب، الذي يعني أنني لازلت على قيد الحياة..

وماذا عن الدكتور (زهران)؟..

كان هذا أول ما فكرت فيه، فمددت يدي أبحث عن ذلك الزر المعتاد للاستدعاء، حتى وجدته..

وبلهفة ضغطت عليه، وما هي إلا ثوان حتى دلفت إلى الحجرة إحدى الممرضات، قائلة بابتسامة سخيفة:

- حمدًا لله على سلامتك.. كيف حالك الآن؟..

- كيف حال الدكتور (زهران)؟

نظرت إليّ لحظات، قبل أن تهتف بانتباه:

- آه.. ذلك الرجل.. إنه في الغرفة المجاورة لك.

أسرعت أحاول النهوض، إلا أنها صدتني صائحة:

- ماذا تفعل؟.. لا يمكنك مغادرة الفراش.

حاولت دفعها بعيدًا وأنا أهتف معترضًا:

-لابد أن أطمئن عليه.

هنا.. لفتت انتباهي تلك الأربطة التي تضمد يدي.. نظرت لها لحظة، ثم مددت يدي الأخرى كي أتحسسها، فقط لأفاجأ بأنها بدورها مضمدة!..

ما الذي يعنيه...

يا إلهي.. جسدي كله مضمد..

- ما الذي حدث؟

جاوبتني وهي تحاول إعادتي للرقود على ظهري:

- حادث بسيط.. لا تقلق.

عدت أسألها بعصبية هذه المرة:

- أجيبيني.. ما الذي حدث؟.. وما مصير الدكتور؟

ضغطت زر الاستدعاء، وهي تقول:

- لو أنك تقصد ذلك الرجل الضخم، فهو بخير تمامًا.. وبالنسب...

قاطعتها باندهاش:

- رجل ضخم؟.. الدكتور (زهران) أوشك على التلاشي أصلاً.

قالت بنفاذ صبر، وقد بدأت تصاب بالعصبية بدورها:

- أنا لا أعلم اسمه، لكنه الرجل الذي أتوا به معك من ذلك الانفجار.

سألتها وممرضة أخرى تدلف للمكان:

- انفجار؟.. هل حدث انفجار أثناء التجربة؟

نظرت لي كأنما ترى مجنونًا، قبل أن تتناول محقنًا وتملأه بسائل ما، مائلٍ لونُهُ للاصفرار، وقالت:

- لا أعلم.. هذا ما سمعته..

ثم مدت يدها لتحقنني بالسائل، وهي تقول:

- ما أعلمه الآن، أنك يجب أن تخلد للراحة.

همت زميلتها بمعاونتها، إلا أنني دفعت يد الأولى الممسكة بالمحقن في عصبية، لأبعدها عني، وهممت بالنهوض..

كانت مجرد دفعة بسيطة..

إلا أنني فوجئت بالفتاة تطير بعيدًا عني قرابة المترين، فقط لتصطدم بأحد جدران الغرفة، فتطلق آهة ألم، لم تلبث أن ماتت على شفتيها، حين خرت فاقدة الوعي على الأرض..

وبذهول حدقت الأخرى في المشهد، ثم نظرت إليّ في فزع رهيب، وهي تتراجع بظهرها خطوات إلى الخلف، فلوحت بيدي في ذعر، وأنا أهتف بها:

- أنا لم أقصد هذا.. صدقيني.. أنا لم...

أطلقت الفتاة صرخة قوية، ثم انطلقت لا تلوي على

شيء، وهي تستنجد بأي شخص..

ألقيت نظرة مذهولة على الفتاة المغشي عليها، ثم انتزعت نفسي انتزاعًا، لأهرول خارج الغرفة، فوقعتْ عيناي على رجل أمن، واثنين من الممرضين يركضون نحو الغرفة، والممرضة الأخرى -تلك اللعينة- تشير نحوي وهي لا زالت تصرخ..

تلفتُ حولي، لم أجد سوى حجرتين بجوار حجرتي..

إحداهما الثالثة في الممر، والأخرى هي الأولى، فحسمت قراري، واقتحمتها، متمنيًا أن تكون غرفة الدكتور (زهران).

* * *

"الباقي من الزمن إحدى عشرة ساعة فقط يا سيدي.."..

غمغم مدير المكتب لشئون المعلومات بالعبارة، ثم

استطرد:

- ولا زال العلماء يعلنون عجزهم عن التوصل لحل في شأن هذه العاصفة.. الدول الشقيقة المجاورة لنا، أبلغتنا رسميًا بموافقتها على فتح الحدود، وتكوين مناطق إغاثة للاجنين من الشعب المصري..

كذلك باقي الدول العربية، وبعض الدول الأجنبية، منها (فرنسا) و(اليابان) أبلغتنا رسميًا استعدادها لإيقاف جميع الرحلات في مطاراتها، لإرسال الطائرات النفاثة والناقلات العسكرية الخفيفة، لنقل اللاجنين الراغبين في المغادرة..

نظر إليه الرئيس بعينين ينهمر منهما الحزن، قبل أن يقول:

- جزيل الشكر لهم..

نطق العبارة بغير إدراك حقيقي، مما دعا بمستشاره للأمن القومي أن يتدخل قائلاً:

- سيادة الرئيس..

نظر إليه الرئيس، فتابع هو بصوت حاول أن يملأه قوة:

- الكارثة التي نتعرض لها كان يمكن أن تتعرض لها أي دولة أخرى.. لكنه قدرنا يا سيدي.. المهم الآن -إذا سمحت لي- ألا نسمح للحزن أن يعوقنا.. لا بد من أن نتحرك بسرعة، قبل أن يداهمنا الوقت.

صمت الرئيس للحظات، قبل أن يقول:

- ما الذي تقترحه؟

- الإجلاء يا سيدي.

ابتسم الرئيس بسخرية مريرة، وقال:

- الإجلاء؟..

- نعم يا فخامة الرئيس.

نهض الرئيس عن مقعده ببطء، وبادل مستشار الأمن

القومي نظرة عميقة، قبل أن يقول:

- هل تعلم مدى نسبة نجاح الإجلاء، في وقت ضيق مثل هذا، وظروف مثل التي نمر بها؟

صمت مستشار الأمن القومي لحظة، قبل أن يغمغم بصوت يملأه الأسى:

- 52%

- ونسبة الناجين من شعبنا؟

- 70% على أفضل تقدير.

هنا هتف الرئيس بقوة وحنق:

- أي إجلاء تحدثني عنه إذن؟.. هل تعلم أن الإجلاء وحده سيتسبب في كارثة رهيبة، ربما تفوق ما ستسببه العاصفة؟..

هل تعلم ما الذي يعنيه أن يكون الناجون من شعبنا نزلاءًا في دول أخرى، فقدوا وطنهم.. بل ربما هويتهم

نفسها، إذا ما قضت تلك العاصفة على دولتنا.. ربما لن يعترف العالم أصلاً بنا في هذه الحالة..

هل تعلم أن أرضنا ستصبح ملكًا لأي جيش يأتيها بعد تلك الكارثة؟.. سيكون احتلال أرضنا نزهة بالنسبة لهم.. سـ...

- محال يا فخامة الرئيس.

قطع الصوت القوي لوزير الدفاع عبارة الرئيس، الذي التفت إليه، فاستطرد الوزير:

- معذرة لدخولي المفاجئ وللمقاطعة، لكن فخامتك سمحت بدخولنا أي وقت بدون إخطار مسبق، في ظل تلك الأزمة، ولقد سمعت حديثك بالطبع مع المستشار.

لوح الرئيس بيده وهو يبتسم بشحوب:

- لا عليك يا رجل.. لقد انتهى زمن الرسميات.

شد وزير الدفاع قامته، مجيبًا:

- محال.. ستبقى رئيس (مصر) الشرعي، وسنبقى نحن جنود الوطن.. وهذا ما جئت لأنقله إلى فخامتك بشكل رسمي..

عقد مستشار الأمن القومي حاجبيه في تساؤل، على حين التمعت عينا الرئيس، ووزير الدفاع يستطرد:

- لقد عرضت الأمر على قادة الجيش، من رتبة المقدم وحتى أركان الحرب.. ولقد كلفوني أن أخبر فخامتكم أن القوات المسلحة المصرية ستعمل على تنفيذ أوامركم بما يخدم الوطن، ويحمي الشعب، على أن يظل رجال الجيش في مواقع خدمتهم بتكليف رسمي من فخامتك بحماية أرض الوطن، حتى تمر الأزمة..

ثم التقط نفسًا عميقًا ليكمل:

- لو تم إجلاء الشعب المصري كله، فسيبقى رجال القوات المسلحة، لحماية الوطن، مهما كانت التضحيات،

ومهما كان الثمن.

وكان قوله فصل الختام.

* * *

4- المفاجأة

لم أصدق ما رأته عيناي، حين اقتحمتُ تلك الغرفة، محكمًا إغلاق بابها خلفي..

كانت بالفعل غرفة الدكتور (زهران)، لكنه هو نفسه لم يكن كما عرفته.. لقد بدا كأنما استعاد أكثر من ثلاثين عامًا من عمره دفعة واحدة، بذلك الجسد الممشوق القوي، وذلك الصدر العريض، والملامح القوية..

بل لقد ازداد طولاً!!..

لثوان حدقت فيه بدهشة، قبل أن أهتف بصوت لم يزل على ذهوله:

- دكتور (زهران)؟..

ابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

- أنت من يثير تلك الضجة بالخارج؟

جاوبته أصوات الطرقات على باب الغرفة، ومحاولات فاشلة لفتح الرتاج، ثم أصوات صراخ حازم بالخارج، فاتسعت ابتسامته وهو يقول:

- إذن فهو أنت بالفعل.

استمر ذهولي لحظات، قبل أن أتمتم:

- ولكن.. كيف؟.. أعني...

جاوبني وهو ينهض عن فراشه:

- هذا تأثير التجربة يا عزيزي.. ألم أقل لك إنها تجربة لاختراع رائع؟

ظللت أحدق في جسده بنفس الذهول، وقد تلاشى إحساسي بما حولي، حتى ربّت على كتفِي، فنظرت في عينيْه الساحرتين، قبل أن أقول:

- لقد كاد القلق يقتلني عليك حين أفقت.

قهقه بصوت مرتفع، ثم اتجه نحو الباب، ففتح رتاجه، مشيرًا لمن بالخارج بالهدوء، وأنا أنظر إلى ظهره المفرود القوي، متمعنًا في تلك التغيرات الرهيبة التي طرأت عليه، قبل أن يغلق هو الباب، وهو يواصل قهقهته، قائلاً:

- لقد حسبوك مجنونًا.

ثم سحبني من ذراعي لأجلس على أحد المقاعد، وجلس أمامي، وهو يقول، وأنا منشغل بالنظر إلى قبضته القوية:

- اسمعني جيدًا.. كانت تجربتي تعتمد على إتمام التجارب التي بدأها الأمريكيون في أوائل الثمانينات من القرن العشرين.. تلك التجارب التي تعتمد على استخدام المعجل الذري في قذف إليكترونات ذرة داخل ذرة أخرى، بحيث يزيد عدد ذرات الأخيرة، فتتحول إلى معدن مخالف.. لقد تمكنت أخيرًا من التحكم في عدد

الإليكترونات المقذوفة والمستقبلة داخل المعجل النووي، وها هي ذي أبحاثي قد نجحت..

بكل تأكيد لم أفهم حرفا مما قاله، لكني بقيت على نظرتي المشدوهة إليه، وهو يتابع:

- كان يمكنني أن أستخدم ذلك النجاح في تحويل عنصر النحاس مثلاً إلى ذهب.. لكني قررت أن الأهم هو تطوير الأجساد.. مجرد تلاعب في الهرمونات.. قررت الاعتماد على إيقاف مفعول المواد المهبطة لهرمون النمو، الذي تفرزه الغدة النخامية في الجسم، بحيث يستمر هذا الهرمون في العمل، فيتضخم حجم الأجسام إلى أقصى درجة ممكنة..

تخيل أن بعض التجارب قد جرت في هذا الشأن، باستخدام الأشعة السينية في منتصف الثمانينات من القرن العشرين، واستمرت حتى اليوم، دون أن يحظى بنجاحها سواي!.

بدأت أفيق من ذهولي، وأنا أحاول متابعة ما يقوله، إلا أن عجزي عن الفهم، جعلني أتمتم:

ـ لكن.. كيف؟..

تنهد في يأس، وعاد يقول:

ـ حاول أن تفهمني.. في خلال مراحل النمو المختلفة من الطفولة وحتى الكهولة، يزداد الجسم حجمًا ووزنًا وطولاً، وتتغير مقاييسه ومعاييره باستمرار، ولكن حجم الخلية الواحدة من خلاياه يبقى ثابتا، فلا يمكننا مطلقا التفريق بين خلية مأخوذة من جسد طفل رضيع وآخر، أو من جسد شاب أو كهل، رجل أو امرأة..

ولو أننا نجحنا بوسائل صناعية في حثّ هرمون النمو على الاستمرار في العمل، فسنحصل على عمالقة أطول وأعرض بكثير من الأحجام الطبيعية، ولكن حجم الخلية الواحدة في أجسادهم سيبقى ثابتًا كما هو الحال في البشر، نحفاء كانوا أو بدناء..

لكن تجربتي اعتمدت على ما سبق وأن ذكرته لك، تمامًا مثلما يحدث لو أننا قمنا بتكبير صورة فوتوغرافية، فتزداد النسب جميعًا بمقياس واحد.

ظللت أنظر إليه مشدوهًا، فهز رأسه في غضب من عجزي عن فهمه، قبل أن يقول وهو ينهض:

-لا عليك.. لا تشغل بالك.. المهم أنني سأرحل الآن منزلي، وعليك بعد أن تخرج من هنا أن تلحق بي.. فلا زال أمامنا الكثير من الأمور.

هتفت به وأنا أنهض ممسكًا بساعده في قوة:

- ألن أرحل معك؟

عقد حاجبيه وهو ينظر إلى قبضتي للحظة، ثم ابتسم ابتسامة لم ترق لي، وهو يتطلع إلى عينيّ لحظات، قبل أن يزيح قبضتي بهدوء، قائلاً في غموض:

- لو لم تنتبه، فأنت ملئ بالضمادات، بشكل يجعلني

أتساءل عن كيفية وقوفك على قدميك هكذا!.. على كل حال لا تقلق..

ثم اتسعت ابتسامته المقلقة، وهو يستطرد:

- لن يطول بقاءك هنا حسبما أتوقع.

ولم أدر وقتها، لم لم تشعرني جملته الأخيرة بالطمأنينة على عكس المفترض؟

* * *

غادرت مع الدكتور (زهران) غرفته بالمستشفى، وهممت بمصافحته، على وعد بلقاء بعد أن ألحق به، إلا أن صوت التلفاز المرتفع، حمل لنا صوت رئيس الجمهورية يتحدث!..

بطبيعة الحال، جذبنا الفضول لنلقي نظرة على الشاشة المجسمة، وفوجئنا بالكثيرين يلتفون حول الشاشة، مما أثار اهتمامنا وتركيزنا..

ولم تمضِ لحظات، حتى تلقيتُ صدمتي التالية، والرئيس يشرح تلك الكارثة التي على الأبواب، ويعلن أنه قرر البقاء في أرض الوطن مهما كان الثمن، وأن الجيش أعلن عدم تخليه عن أرض الوطن، وأنه يدعو المواطنين للتماسك والهدوء قدر الإمكان، ويعلن فتح جميع المطارات المصرية للراغبين في الهرب من تلك الكارثة، وأن طائرات الإغاثة المروحية والأخرى من نوعية (الهوفركرافت) تنتظر للمساعدة في الإجلاء.

كانت النهاية بالفعل..

نهاية (مصر).. وبأبشع وأغرب صورة عرفها التاريخ، أو تخيلها بشر..

وفي لحظات -وكما هي عادة المصريين- ساد الهرج حولنا، وارتفعت الصيحات، وأغمي على بعض الشابات..

وتبادلنا الدكتور (زهران) وأنا النظرات، وأمسك هو بيدي، وقال بحزم:

- يبدو أن علاجك سيتأخر بعض الوقت يا فتى.

أجبته وهو يسحبني وراءه:

- بل تم إلغاءه يا سيدي.. إنها النهاية.

صمت دون أن يجيبني وهو يبحث -عبثًا- عن سيارة أجرة تقلنا.

* * *

ساد القلق بوضوح على وجوه رجال الأمن، من وزارتي الداخلية والدفاع، وهم يبذلون قصارى جهدهم للسيطرة على الأمور، وتسهيل عملية الإجلاء، للراغبين في الفرار من الكارثة المقبلة..

وفي مبنى رئاسة الجمهورية، جلس الرئيس شاردًا يحدق فيما يجري في مختلف أنحاء الدولة، على شاشة راصده الخاص، قبل أن يدلف إلى مكتبه كبارُ القادة، ومعهم قائد الحرس الجمهوري، ورئيس الحراسة الخاصة..

وبنفس النظرة الشاردة، تطلع إليهم الرئيس، قبل أن يغمغم:

- اذهبوا أنتم.. أنا لن أغادر مقري.

تبادلوا نظرات متوترة، قبل أن يقول وزير الدفاع:

- سيادة الرئيس.. يجب أن...

قاطعه الرئيس بإشارة حازمة من يده، وهو يدير وجهه بعيدًا، قائلاً:

- يجب أن أبقى.. أن أشارك الشعب مصيره.

ثم أشار إلى شاشات الرصد، وهتف بمرارة:

- انظروا.. هذا هو حال (مصر) اليوم.. هل أفر؟.. مثل أي جبان، أتخلى عن أهلي؟.. عن الناس الذين ائتمنوني على حياتهم ومستقبلهم؟

أجابه رئيس الحرس الشخصي، وهو يشد قامته في حزم:

- بل تلتزم بالعهد.

نظر إليه القادة بدهشة، على أحين أدار الرئيس وجهه إليه في بطء، فاستطرد بمزيد من القوة:

- أن تبقى لتزود عنهم لاحقًا.. أن تبقى لتعيد الأمور إلى سابق عهدها، بعد انجلاء الغمة بإذن الله.. أن تبقى، كي لا ننهار..

ليس من حقك -واسمح لي- أن تفكر بهذه الرومانسية يا سيدي.. عليك أن تتخذ قرارّ المنطق.. وهذا القرار -وحده- يؤكد على ضرورة سلامتك وبقائك.

حدق القادة في وجهه بذهول، على حين استطرد هو بأسف:

- عفوًا فخامة الرئيس، ربما تجاوزت حدُ...

أشار إليه الرئيس بيده كي لا يكمل، ثم ألقى نظرة طويلة على شاشات الرصد، قبل أن ينهض بحزم، وقال بصوت استعاد كل قوته:

- فليتم تنفيذ خطة إنقاذ الحكومة، على ألا يتجمع القادة كلهم في دولة واحدة..

تفرقوا، والأفضل أن يكون ذلك في الدول العربية الشقيقة، في ظل هذه الأزمة.. (السعودية)، (الكويت)، (سوريا)..

ثم ألقى نظرة باسمة على وجه قائد الحرس، وهو يقول:

- أما نحن، فلن نغادر (مصر)..

همّ قائدُ الحرس بالتعليق، إلا أن الرئيس أكمل بسرعة:

- سنكتفي بالمخبأ النوويّ.. أعتقد أنه ملائم.

ثم فرد قامته، وهو يستطرد:

- سأكون في مأمن كما تريدون لي، كما لن أغادر الوطن، كما أريد أنا.

وبدا لهم في هذه اللحظة، أشبه بعملاق..

عملاق من مصر.

* * *

5- القوة

دلفت مع الدكتور (زهران) إلى فيلته، والتوتر والعصبية بداخلي قد بلغا أوجهما، مما رأيناه في الطريق من المشفى، حتى هنا..

شوارع (مصر) كلها في قمة الارتباك.. الناس أصابهم الجنون وهم يعلمون أن نهايتهم بعد ساعات قليلة.. المدارس سرّحت الطلاب، والأهالي يركضون إلى منازلهم للاطمئنان على ذويهم، والبعض قرر الرحيل إلى الأرياف، أو المحافظات البعيدة عن قلب العاصمة، والبعض سارع إلى المساجد والكنائس، وأخذ يبتهل إلى الله تعالى أن تمر الغمة بسلام..

رجال الشرطة انتشروا بالطرقات بشكل مكثف، في محاولة للسيطرة على الأمور، وأعلنت حالات الطوارئ

في المستشفيات..

كان واضحًا أن (مصر) تغلي..

ووسط كل هذا، كان الدكتور (زهران) في قمة الهدوء، وهو يلقي بحامل مفاتيحه بلامبالاة، ويتوجه نحو باب المختبر، المغطى بسواد الانفجار -ذاك الذي أخبرتني عنه الممرضة- وهتف الدكتور (زهران) يدعوني للحاق به، وهو يدلف إلى الداخل..

تطلعت حولي لحظة، وأنا أتساءل في سري، لماذا لم يأتِ (عبده) للترحيب بنا، ثم تذكرت أنه لابد وفرّ إلى أهله، فلحقت بالدكتور، قائلاً:

- ماذا سنفعل؟

جلس بهدوء إلى مكتبه، وهو يشير لي أن أجلس بدوري، قائلاً:

- لا شيء.

حدقت فيه بدهشة، وقلت:

- لا شيء؟.. ألم تسمع ما قاله الرئيس في التلفاز.. ألم ترَ حال البلد؟.. هل سنجلس -فقط- منتظرين النهاية؟.. إنهم يتحدثون عن أمطار حمضية، ستمحو الحي...

قاطعني ملوحًا بيده، وهو يقول:

- أعرف ما يتحدثون عنه.. لكن هذا لن يضيرني لا أنا ولا أنت.

- ما الذي تعنيه؟

- بل ما الذي تشعر به أنت؟

كررت في بلاهة حائرة:

- ما الذي تعنيه؟

أجابني في حماس:

- ألا تشعر بالقوة في جسدك؟.. ألا تشعر أنك أصبحت مختلفًا عن قبل؟

تذكرت موقف الممرضة، فهتفت:

ـ آه.. صحيح..

ثم اندفعت أقصّ عليه ما حدث، وهو يتابعني باهتمام، ثم هتف:

ـ ألم أقل لك.. أنت أيضًا تغيرت.

نظرت إليه في اهتمام، فاستطرد وهو ينهض من مقعده:

ـ حين حدث الانفجار الذي أخبرونا عنه، والذي أتوقع أنه جاء نتيجة عدم تحمل الموصلات لضغط الطاقة الكهربية المرتفع، جرى في جسدك مزيج مدهش من الكهرباء، والذرة المستخدمة في التجربة، أدى إلى تطور جسدك أنت أيضًا بشكل مختلف..

فبالنسبة لي، الأمر جاء كما خططت له بالضبط، مما أدى إلى كبر حجم خلايا جسدي، وتحسن قدراتها، وزيادة

قوة الجهاز المناعي لدي.. بالنسبة لك، اكتسبت خلايا جسدك القوة التي اكتسبها جهازي أنا المناعي، دون أن يتغير حجمها.. الأمر الذي يعني أنني توصلت إلى كشفين علميين، وليس واحدًا فقط.

عجزت عن الفهم، وبدا ذلك واضحًا على ملامحي، فقهقه الدكتور (زهران) وهو يستدير حول مكتبُه قائلاً:

- ببساطة.. أنا أصبحت مثل لاعب كمال الأجسام، الذي يواظب على التدريبات الشاقة، والعقاقير الطبية، والغذاء السليم.. دون أن أرهق نفسي، أو يمنعني سني المتقدم عن ذلك.. وأنت- ببساطة- تحولت إلى (سوبرمان)..

رددت وراءه بانبهار:

- (سوبرمان)؟

عاد يقهقه وهو يضرب ساقي بمرح:

- بلى أيها المحظوظ.. والزمن وحده هو الذي سيحدد

مقدار قوتك المكتسبة تلك.

نظرت إلى جسدي بابتسامة حائرة، ثم انتبهت للضمادات التي تحوطني، فسألته بحيرة:

- لكن ما هذه الضمادات؟

صمت للحظة، قبل أن يقول وقد هدأ مرحه:

- هذا هو الثمن الذي دفعته يا صديقي.

سألته بقلق:

- وما هو هذا الثمن؟

نظر ورائي، فتطلعت إلى حيث ينظر، لأنتبه لوجود مرآته الشخصية الصغيرة، فنهضت لأنظر فيها، و...

لو أن ما أمامي كان مشهدًا من تلك التي تمتلئ بها أفلام الرعب السخيفة، التي لا هم لها سوى إثارة خوف الآخرين، لنهضت في حنق وملل من أمام الشاشة..

لكنه لم يكن كذلك للأسف الشديد!..

لقد تمت إحاطة وجهي بالكامل تقريبًا بالضمادات، ولكن الفتحة البسيطة التي تسمح لعيني بالرؤية، جعلتني أدرك ما صار إليه حالي..

لقد احترق جسدي، وملامحي تشوهت..

ظللت أحدق في المرآة لحظات، قبل أن يضع الدكتور (زهران) كفه على كتفي، وهو يقول:

- لا تقلق.. الأمر قابل للعلاج.

التفت إليه بذهول، وأنا أكاد أبكي، فتابع:

- صدقني.. نحن أصلاً نحيا في عصر تقدم فيه الطب والعلم إلى درجة رائعة.. كما أن قدراتك الجديدة ستساعدك بشكل فعال في سرعة العلاج..

يكفي أنك لا تشعر بأي آلام على الرغم من أن أي شخص في وضعك هذا، لم يكن ليتوقف عن تعاطي (المورفين)، وربما أيضًا مادة (الناركوتيك) الحديثة.

ثم اقتادني لأجلس على مقعدي، وجلس هو قبالتي، قائلاً:

ـ اهدأ يا (عصام) واسمعني جيدًا.. سأقوم بعلاج تلك الحروق والتشوهات التي لحقت بك على نفقتي الخاصة.. وأعدك أن ذلك سيتم سريعًا.. أسرع مما تتصور.. المهم الآن أنني أريدك معي.. إلى جواري في معركتي، لتحقيق حلمي الذي أسعى وراءه.

بدأت أتمالك نفسي، فسألته:

ـ ماذا تريد؟

صمت لحظات وهو ينظر إليّ، قبل أن ينهض من مقعده، ويتجه نحو النافذة، ليبصر من خلالها الطرقات والناسَ المذعورين الراكضين في كل حدب وصوب، وغمغم كالحالم يحدث نفسه:

ـ (مصر).

خيل إليّ أنني لم أسمعه بشكلٍ واضح، فسألته:

ـ ماذا؟

عاد لصمته القصير، قبل أن ينتفض، ويقول في مرح ـمصطنع هذه المرةـ وهو يلتفت ليواجهني:

ـلا تشغل بالك.. سأخبرك كل شيء، بعد أن نرى إلام ستنتهي الأمور.

ولستُ أدري لماذا شعرت في تلك اللحظة، كما لو أن يدًا باردة تعتصر قلبي.

* * *

لم يعد باقيًا على النهاية سوى أربعة ساعات فقط..

تلك العاصفة تزداد قربًا وقوة، والأشجار تبدو كما لو سيتم اقتلاعها من جذورها..

الطرقات مزدحمة تمامًا بالناقلات والبشر..

اضطرت الحكومة للاستعانة بالجيش، في محاولة للسيطرة على الأمور..

لجأ الناس إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع، لينقذهم مما هم فيه، وليرفع عنهم غضبه ومقته..

ووسط كل هذا، كنت أنا أفكر فيما آل إليه حالي، وفي مصير والدتي التي تركتها في منزل شقيقتي قبل تلك الأحداث..

يا إلهي.. هل سيموت كلانا، دون أن يرى الآخر؟!

أخرجني الدكتور (زهران) من أفكاري، وهو يناديني من أمام تلك المرآة، التي بدت كما لو سحرتني لأظل أحدق فيها..

التفتُ إليه، فقال في حزم:

- اتبعني.

لحقتُ به إلى قبو الفيللا، ولمحته يحكم إغلاق الرتاج الإلكتروني، ويسرع نحو بعض الركام؛ ليزيحه، ويعبث بأصابعه فترة في الأرضية لتبدو بعض الأزرار الصغيرة للغاية، ضغط عليها باستخدام أداة رفيعة، فقط لألمح بابًا

مخفيًا بمنتهى المهارة في تلك الأرضية، تكشّف لي وهو ينزاح عن موضعه، ويبدو لي سلم بالأسفل..

غمغمتُ:

- ما هذا؟!.. مغارة على بابا؟

أجابني بحزم لم أعهده فيه:

- كف عن هذا الابتذال.

ثم جذبني لننزل السلم، وهو يغلق الباب الأرضي خلفه..

ولمسافة قصيرة لا تزيد عن الأمتار الخمسة، هبطنا ذلك السلم حتى استقر بنا المقام في مدخل نفق بارتفاع حوالي متر ونصف المتر، تنتظر في بدايته سيارة صاروخية صغيرة الحجم، تتسع لثلاثة أشخاص دفعني إليها، وقفز إلى مقود القيادة، وأنا أسأله بذهول حقيقي:

- ما هذا؟.. ما هذا؟..

لم يجبني وهو ينطلق بأقصى سرعة لتلك المركبة، ولمحتُ عداد السرعة يُشير إلى مائتي وثمانين كيلومترًا بالساعة، فانكمشتُ في مقعدي، وأنا أحدق في وجهه بحيرة..

كان يبدو وكأنه في أقصى سعادة يحلم بها إنسان.

قلتُ:

- إلى أين نذهب؟!

أجابني صائحًا في بهجة:

- إلى مقر الحكم.

امتلأ صوتي بتلك الدهشة في داخلي، وأنا أهتف:

- ماذا؟

قهقه وسعادته تزداد من دهشتي، وقال ملوحًا بيده:

- مقر الحكم يا فتى.. مقر الحكم.. المقر الذي سنتولى منه شئون الدولة بعد ذلك الانهيار..

ثم استطرد كالحالم:

- يا إلهي.. الحلم يتحقق..

وعاد يقهقه من جديد، ونفسي تمتلئ بالخوف..

هذا الرجل مجنون..

مجنون بالتأكيد.

* * *

6- الخراب

لم أصدق ما رأته عيناي..

مساحة لا تقل عن مساحة شقة سكنية فاخرة، مكونة من طابق كامل، تم تقسيمها إلى 6 غرف متوسطة الحجم، وغرفة كبيرة تحتوي على مكتبة هائلة لم أحلم بوجودها، وفي كل مكان العديد من المقاعد والمناضد وأجهزة الكمبيوتر، ومساحة أخرى صغيرة، بدت لي أشبه بمصنع صغير، وعشرات الأشياء التي لا أستطيع أن أحصيها الآن..

وشق سمعي صوت الدكتور (زهران) وهو يهتف، فاردًا ذراعيه:

- مرحبًا بك يا (عصام) في مقر الحكم.

نظرت إليه في ذهول لم ينتهِ بعد، وهو يتابع:

ـ هذا هو مخبأي الخاص.. أعددته منذ سنوات، خشية قيام الحرب العالمية التي تحدثوا عنها عام 2028م.. لم تقم الحرب.. لكني ظللت أعمل على تطويره.. كان لدي الإحساس بأني سأحتاجه ذات يوم.. وها نحن اليوم نلجأ إليه، ليحمينا من الخراب القادم. ولنعد منه خطة حكمنا.

غمغمتُ بذات الذهول:

ـ حكمنا؟.. مخبأ؟

حدقتُ به لحظة، قبل أن ألقي جسدي المُرهق من التعب والحزن على أقرب مقعد، وأنفجر في البكاء.

تطلع إليّ لحظات، ثم نهض يربت على كتفي قائلاً بصوت عميق:

ـاسمع يا(عصام).. أعلم أنك حزين على والدتك وأحبائك، لكن هذا مصير الحياة.. الموت قادم لا محالة.. ربما جئنا بوالدتك هنا، فقط لتجدها لا تستجيب لندائك في

صباح اليوم التالي.. المهم الآن يا صديقي أنك أنت هنا، ويمكنك أن تفعل شيئًا.

نظرتُ إليه وعيناي دامعتان، وغمغمتُ:

ـ وما الذي أفعله؟

هتف بغتة بحماس:

ـ أن تحكم معي مصر.

عاد الذهول يصرخ من ملاحي، وأنا أهتف به:

ـ أحكم معك مصر؟.

دار في المكان وهو يتحدث بحماس وسرعة، قائلاً:

ـ تخيل الأمور معي.. ما هي إلا ساعات قليلة وتقع تلك العاصفة التي تحدثوا عنها.. ستذيب المواد وتقتل الحيوانات، وتُهلك الزرع، وكل من سيقف مكشوفا أثناء حدوثها.. ومع كل ذلك، سترتفع نسبة الغازات السامة في الجو، لتهلك صحة الناس، وتقضي على الأطفال

والمرضى.. باختصار لن يمر أسبوعٌ واحد إلا ومصر مقبرة ضخمة.. الأحياء فيها لن يكون بوسعهم فعل أي شيء.. وقبل أن تبدأ الدول تحركها للمساعدة -بل وربما احتلال مصر بحجة حمايتها- نظهر أنا وأنت.. وبكل ما هو متاح لنا من قوة، يمكننا أن نعلن أنفسنا حكامًا لمصر.. هل تتخيل هذا يا صديقي.. رئيسي مصر.

وعاد يقهقه من جديد، وأنا أنظر إليه، كما تنظر إلى المعتوه في خوف وقلق.

هذا الرجل غير سليم عقليًا..

فقد الإدراك.. فقد الإنسانية..

والمشكلة الحقيقية أنني معلق ها هنا معه..

وأدركتُ أن الساعات القادمة ستكون عصيبة..

عصيبة بحق..

* * *

كانت بالفعل ساعات عصيبة على (مصر)..

لقد انطلقت الأمطار فجأة، كما لو أنها "دُش" من الماء البارد، ينهمر فوق رأسك، في يوم حار..

ومن كل مكان، انطلقت الصرخات، التي حملت من الرعب والخوف، أكثر مما حملت من الألم..

لقد أتت العاصفة قبل موعدها المتوقع بثلاث ساعات كاملة.. فاجأت رجال الأمن، والمواطنين، والقيادات..

الحوامات التي كانت قد أقلعت، لم تكن قد غادرت بعد حدود العاصفة، حين انهمرت الأمطار الحمضية، وتكاثف البخار، فاصطدمت ثلاث حوامات ببعضها، لتنفجر بكل ما عليها من مواطنين، تنوعوا ما بين رجل وامرأة وطفل..

وكانت أول ضربة ناجحة للعاصفة..

للطبيعة الغاضبة، التي خالفت كل قواعدها -ربما للمرة الأولى- لتثبت للإنسان، أنه أضعف مما كان يتصور..

ولم تمر نصف الساعة، حتى كانت خمسة حوامات قد فقدت توازنها بالتوالي، وسقطت محطمة، ولم ينجُ سوى القليلين، الذي لم يجدوا من يمد لهم يد الغوث، في ظل انقطاع الاتصالات وارتباك الموت المحيط بالجميع..

وتوالت الكوارث، وتنوعت، بين من تعرضوا للأمطار، فظلوا يصرخون من الألم، حتى قضوا نحبهم، وأبخرة بشعة تتصاعد من جلودهم الحية.. وبين أولئك الذين سقطوا بحواماتهم..

وسط كل هذا وما هو أكثر منه، عقد الرئيس ذراعيه أمام صدره، وتجمد على مقعد مكتبه، وهو يتابع على شاشات الرصد الخاصة في مخبأه النووي كل ذلك، ولم تعبر ملامحه عن الألم المستعر بداخله..

وبتوتر أخذ قائد حراسته يدير بصره بين الشاشات، وقد عقد حاجبيه في قوة، مربتًا على مسدسه الليزري، كأنما يستمد منه حماية ما..

لم تمضِ لحظات، حتى دلف إلى المكتب سكرتير الرئيس للمعلومات، وتنحنح ليلفت انتباه الرئيس، ثم تمتم بخفوت:

ـ السادة الوزراء وصلوا إلى الدول المستضيفة يا فخامة الرئيس، وبدأوا على الفور في عقد اجتماعاتهم الطارئة مع القيادات المسئولة هناك.

لم يبدُ أن الرئيس قد سمعه، أو حتى شعر بوجوده، فالتزم الرجل الصمت، وبقي ساكنًا في مكانه، على حين بدا الرئيس كما لو امتزج بصره، وكيانه كله، بالشاشات أمامه.

* * *

لم أكن أتخيل أن هذا ما سيجري..

كنت أعرف أن الأمر ليس بسيطًا بالتأكيد، ما دام رئيس الجمهورية ذاته أعلن عنه، وما دامت الحكومة اتخذت قرارها بالإجلاء..

لكني لم أتصور أن أرى كل هذا..

موت وخراب ودخان وجثث، في كل مكان من أرض (مصر)..

وطني تحول إلى مقبرة جماعية، أسوأ حتى مما يحدث في الحروب..

ما الذي فعلناه لنلقى هذا العقاب؟.. أي ذنوب لعينة ارتكبناها ليكون هذا مصيرنا؟.. أن نرى بأم أعيننا هلاكَ أهلينا وأحبائنا وأصدقائنا وفلذات أكبادنا؟..

لم أستطع التماسك، فانهرت أبكي، وخيل إليّ أن الدكتور (زهران) ينظر إلي في ضيق، إلا أنني لم أبالي، وظللت أفرغ ما في داخلي بدموع أزرفها دون توقف..

وبعد دقائق لا أدري عددها، توقفت أخيرًا عن النحيب، فغمغم (زهران):

- هل انتهيت؟

نظرت إليه في حنق حقيقي، وقلت:

- أنت وحش..

نظر إلي باستخفاف، وقال:

- لِم؟.. ألانني لا أبكي مثل الفتيات الصغيرات، اللواتي ضللن طريقهن لأمهاتهن؟..

خيل إلي أنه يسخر من أمي، فهجمت عليه مسقطًا إياه من مقعده، صارخًا بجنون:

- اخرس أيها الحقير.

سقط وأنا فوقه، إلا أنه دفعني بذراعيه لأعلى، وهو يستدير بجسده، فطرت من فوقه لأسقط على الأرض، على حين هب هو واقفًا، وهو يهتف باستمتاع حقيقي:

- يا لها من متعة.. منذ سنوات عديدة لم أشعر بهذه القوة.

هببت واقفًا، وانقضضت عليه، فحاول مفاداتي، إلا أنني كنت أسرع منه، وحملته عاليًا، لأدور به مرتين وهو

يضحك، ثم ألقيته بكل قواي على الأرض، فقط ليصطدم رأسه بإحدى المناضد، ويسقط وقد همدت حركته..

هتفت بلوعة:

- يا إلهي.. ماذا فعلت؟

فوجئت به ينهض، وهو يواصل قهقهته هاتفًا:

- لا تقلق.. لو كان شخصًا غيري، لمات من فوره.

انهرت أرضًا، وأنا ألهث من فرط الانفعال، فصمت هو لحظات، ثم اقترب مني ليربت على كتفي، وقال:

- (عصام).. لا داعي لكل ما تفعله بنفسك.. الأمر انتهى، والحياة تستمر.. دعنا نفكر في المرحلة القادمة.

نظرت إليه من بين دموعي الصامتة، على حين جذب هو مقعدًا، جلس عليه وهو يتكلم..

ومع كل جملة ينطقها، كان ذهولي يزداد.

* * *

استغرقت العاصفة سبع ساعات كاملة..

لم تتوقف خلالها ولا مرة واحدة، وامتلأت الطرقات بالجثث، من البشر والحيوانات، وذبلت النباتات، وتصاعدت الأبخرة في كل مكان من أرض (مصر)..

ثم أخيرًا توقفت..

ورغم ذلك، كان من المستحيل أن يخرج أي كائن من مخبأه..

فالمياة الحمضية كانت تغرق الطرقات، والأبخرة السامة تتكاثف، وتقتحم أنفاس الكائنات الحية دونما استئذان، مع الهواء المشبع بالأكسجين..

حتى من ظنوا أن فرارهم للأدوار العليا سيحميهم، تساقطوا من أثر الغازات، الواحد تلو الآخر..

صحيح أن العاصفة قد توقفت، لكن الموت لم يفعل..

لم يك اكتفى بعد..

لم تك مهمته قد انتهت..

ورغم كل ما يجري، والذي يثير الشجن والألم في النفوس، كان هناك من يعدون لـ(مصر) مصيرًا أسوأ مما تلقاه..

عيونهم على ما يجرى، وقلوبهم تخفق بالأمل والحماس..

لقد بدا لهم الحلم وشيك التحقيق..

حلم (من النيل إلى الفرات)..

حلم (إسرائيل الكبرى).

* * *

7- كارثة

ثلاثة أيام كاملة مرت على (مصر)، لم يتحرك في طرقاتها سوى رجال الجيش، وقد ارتدوا الأقنعة الواقية من الغازات، وحملوا عتادهم وأسلحتهم، وسياراتهم المجنزرة تنطلق في الطرقات، تعمل على نزح المياة إلى المصارف، وعلى متنها أطباء وإخصائيّي تمريض، يؤدون دور الإسعاف، ويبحثون عن الأحياء لتقديم يد العون لهم، وانتشر المشاة منهم في زي خاص، للحفاظ على الأمن والانضباط، وسيطر البعض منهم على جهاز الإذاعة والتلفاز، وانطلقت -لأول مرة منذ العاصفة- الأصوات الإذاعية، تحمل الأخبار والبرامج الدينية والنشيد الوطني وأرقام هواتف الإغاثة..

لأول مرة منذ العاصفة، بدأت الحياة تعود لـ(مصر)..

وفي مقره السري المؤَمَّن، لم يذق الرئيس طعم النوم

لليلة الرابعة على التوالي، وبدا مثالاً مجسمًا للإرهاق، مما دفع قائد حراسته أن يقول بصوت صارم:

- أعتقد أنه قد آن الأوان لتنعم بقليل من الراحة يا سيدي.

نظر إليه الرئيس بعصبية، هاتفًا:

- أي راحة يا رجل؟.. يجب أن نعيد الأمور لما كانت عليه في أسرع وقت ممكن.

- معذرة يا سيدي لكن.. لن يمكنك ذلك، وأنت تنهار من التعب والإرهاق.. قراراتك نفسها ستفقد حكمتها المعتادة، وربما أدى هذا إلى عكس ما تأمله.

هب الرئيس غاضبًا، وهتف مواجهًا إياه:

- كيف تسمح لنفسك..؟..

قاطعه قائد الحراسة سريعًا:

- معذرة يا سيدي.. هل لاحظت أنك صرت عصبيًا،

والموقف لا يحتمل هذا..

نظر إليه الرئيس، فتابع بنفس السرعة، متمًا عبارته:

ـ هذا من جرّاء عدم النوم.. لك أن تتخيل يا سيدي ماذا يمكن أن يحدث أيضًا.. أنت بشر في النهاية.

بادله الرئيس النظرات، ثم أغمض عينيْه وهو يلتقط أنفاسًا عميقة، قبل أن يبتسم بشحوب قائلاً:

ـ أنت على حق يا رجل.

تنفس قائد الحراسة الصعداء، واستمع للرئيس وهو يقول:

ـ أيقظوني بعد أربعة ساعات.

راقبه رئيس الحراسة حتى اختفى في غرفته الخاصة، الملحقة بمكتبة، فاقترب منه سكرتير الرئيس للمعلومات، قائلاً وهو يبتسم:

- أريد أن أعرف كيف تتعامل معه هكذا، وكيف يتقبله منك؟

أجابه الرجل وهو لا زال ينظر حيث اختفى الرئيس:

- ببساطة، لأني المسئول عن أمنه..

ثم نظر للسكرتير قائلاً:

- ولأنه رجل حكيم، يعرف الصواب، ويعترف به.

هز السكرتير رأسه مؤمنًا، وفتح فمه ليعلق، إلا أن اقتحام مسئول الإعلام للمكتب منعه، والتفت إليه بدهشة مع قائد الحراسة، والمسئول يهتف بفزع:

- أين الرئيس؟

قطب قائد الحراسة جبينه في توتر، والسكرتير يجيب:

- لقد ذهب ليحصل على قليل من النوم.. ما الأمر؟

هتف الرجل وهو يلوح بذراعيه:

- كارثة.. كارثة.

وكانت بالفعل كارثة.

* * *

شعر الحاج (حسين) بالغضب الشديد، وصوت صياح الأطفال أمام باب منزله يصل إلى أذنيه، وغمغم بحنق:

- هؤلاء الشياطين الصغار.. كم مرة قلت لهم ألا يصخبوا أمام منزلي؟.. كيف لعجوز مثلي أن ينعم بالراحة، وهم يثيرون هذا الصخب!.. لقد أدركت الآن قيمة تلك الأمطار.

نهض عن مقعده الوثير، متكئًا على عصاه التي صاحبته عمرًا، وبدت له الردهة طويلة بحق، وهو يسير بساقين مرتعشتين، متوجهًا نحو الباب، وصخب الأطفال يزداد، وأطلق سبة حين اصطدمت ركبته بقائم المنضدة، وفي ألم، في ذات الوقت الذي صرخت فيه طفلة بالخارج، فهتف:

- اللعنة.. يالكم من شياطين.

وبكل غضبه، دفع جسده الواهن نحو الباب، وفتحه في عنف متوقعًا أن يركض الأطفال بعيدًا، ولكنه وجدهم يفرون بالفعل من قبل خروجه، وإن اشتبكت فتاتان معًا، إحداهما فوق الأخرى، تعض صديقتها على ما يبدو، فلكزها بعصاه برفق، صائحًا بغضب:

- كفاكما، هيا اذهبا من هنا.. هيا.

بدا له أن الملقاة على الأرض قد همدت حركتها، فعاد يلكز الجاثمة فوقها هاتفًا:

- قلت هيا.

في بطء، استدارت نحوه الطفلة، وشعرها الثائر يلتصق بوجهها بسائل أحمر، ونظرة غضب تطل من عينيها لا تتناسب مع عمرها ولا رقة ملامحها، فغمغم بتوتر:

- هل هكذا تلعب فتاة مهذبة مثلك!.. ألم يعلمك أبواك

الـ...

نهضت عن صديقتها وحملت دميتها الملقاة بعيدًا وأخذت تبتعد عنه، فنظر إليها بتعجب، ثم استدار ينظر بغضب إلى الأخرى التي لم تحرك ساكنًا، فتوجه إليها قائلاً:

- أنتِ.. هيا، انهضي..

ولما لم يجد منها استجابة، دفعها بعصاه، فقط ليلتف رأسها نحوه في حركة جامدة، ويفاجأ ببركة دماء صغيرة تسيل من عنقها، لتروي الأرض من تحتها، فتراجع للخلف مطلقًا شهقة قوية، سقط بعدها وقد تخلت عصاه عنه، ليجد عيني الفتاة الجامدتين تحدقان به..

ألم هائل سرى في كتفه وذراعه، وحاول أن يلتقط أنفاسه دون جدوى..

ثم أظلمت الدنيا أمام عينيه.

* * *

لتوي نهضتُ من فراشي، وغادرته متوجهًا إلى الحمام.. لمحت (زهران) يجلس على نفس المقعد الذي تركته عليه فجر اليوم، وعيناه ملتصقتان بتلك الشاشة العملاقة، التي يمكنها استقبال بث عشرة قنوات في آن واحد..

كان من الواضح أنه يتابع أخبار ما يحدث، عبر القنوات الإخبارية الفضائية..

لمحت شعار القناة الأولى المصرية على إحدى الشاشات، فسألته وأنا أتوجه نحوه:

- هل عاد التلفاز للبث؟

نظر إلي وابتسم قائلاً:

- هل استيقظت؟

لوحت بيدي وأنا أجلس على المقعد المجاور له، قائلاً:

- بل قل: هل نمت؟.. لا أدري ما الأمر، لكن رغم كل تلك الأحداث، لا أستطيع النوم إلا كل يومين على الأقل.

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- هذا طبيعي.. فجسدك الآن أقوى بكثير.. ومع الوقت، سيقل عدد ساعات نومك، وتتباعد الفترات أكثر.

عدت ألوح بيدي دلالة على الضجر، وعدم اهتمامي، وأنا أسأله:

- لم تجبني بعد.

التفت إلى الشاشة، وهو يقول:

- نعم.. البث عاد بشكل محدود، ويتركز على الأخبار والإذاعة الدينية.

أومأت برأسي، وقلت:

- هل من جديد؟

- ليس بعد.. إنهم يحاولون السيطرة على الموقف،

ويبدو أن أمامهم وقت كبير.

صمت لحظات، ثم نهضت قائلاً:

- أشعر بالجوع.. هل أعد لك شيئًا معي؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- أسرع فقط، لأننا يجب أن نبدأ التحرك الآن.

قطبت جبيني بتساؤل وقلت:

- أي تحرك؟

- تناول إفطارك أولاً.

نظرت إليه لحظات، ثم توجهت للمطبخ، وأنا في دهشة من نفسي..

من قبل، كان إفطاري هو السجائر والشاي.. الآن أبحث عن الطعام، وألتهم منه وحدي ما يكفي أسرة متوسطة، ولا تراودني أي رغبة في السجائر..

يبدو أن (زهران) قدم لي خدمة بالفعل..

جلست أمام الطعام، ومددت يدي بأول لقمة نحو فمي، إلا أن صوت (زهران) يصرخ غاضبًا، اخترق مسامعي، فألقيت ما بيدي وأسرعت للخارج، فوجدته واقفًا، وظهره منحني من الغضب، وهو يلكم راحة كفه اليسرى، بقبضته اليمنى، هاتفًا:

- لا .. أيها الأوغاد.

أسرعت نحوه هاتفًا:

- ما الذي حدث؟.

التفت إليّ وفي عينيه يتقافز كل غضب الدنيا، وهتف:

- انظر.

ألقيت نظرة على ما يشير إليه على الشاشة، وصعقت لهول ما أرى..

كانت كارثة..

كارثة حقيقية.

* * *

"أي كارثة تلك يا رجل التي تتحدث عنها؟"

هتف الرئيس، وهو يغادر غرفته، بعد أن وصل إلى مسمعه ما قاله المسئول الإعلامي، الذي اعتدل في انتباه، وهو يواجه الرئيس قائلاً:

- الإسرائيليون يا فخامة الرئيس.

امتدت يد قائد الحراسة بحركة غريزية إلى سلاحه، على حين توتر سكرتير الرئيس، والرجل يتابع:

- لقد اقتحموا منذ دقائق حدودنا المشتركة، وقواتهم تنتشر سريعًا في أرض (سيناء).

هتف الرئيس بغضب:

- ماذا؟.. كيف يجرؤون؟

أجابه الرجل في سرعة:

ـ الولايات المتحدة أعلنت أنها أجرت اتصالاً عاجلاً برئيس الوزراء الإسرائيلي، لمعرفة دوافع الأمر، فأبلغها الأخير بأن هذه مجرد عملية محدودة، لتأمين (إسرائيل) في ظل عدم الاستقرار الأمني الذي تمر به (مصر) حاليًا.

قاطعه الرئيس صارخًا بغضب:

ـ تأمين؟.. نفس الألعاب السخيفة يمارسونها، رغم كل تلك السنوات.. نفس الميول الاستعمارية البغيضة، واستغلال الظروف، بمنتهى النذالة والخسة..

ثم شد قامته في اعتداد وهو يقول بمنتهى الصرامة:

ـ لقد اختاروا.. وسيذوقون مرارة ما اختاروه.

ارتفع رنين هاتفه الخاص في هذه اللحظة، فالتقطه وهو يجيب، فأتاه صوت وزير الدفاع قائلاً:

ـ فخامة الرئيس..

قاطعه الرئيس بعجالة:

- لقد علمت يا سيادة الوزير.. هل أنتم جاهزون؟

أتاه صوت الوزير واثقا وهو يقول:

- كالعادة يا سيدي.

صمت الرئيس لحظة قبل أن يقول:

- انتظر إشارتي.

أغلق الهاتف، وهو ينظر للمسئول الإعلامي قائلاً بغضب مكتوم:

- هناك بيان أريد أن ألقيه ببث مباشر.. حالاً.

بدون كلمة أخرى، انطلق المسئول الإعلامي لتنفيذ الأمر، على حين نظر الرئيس لقائد حراسته قائلاً:

- هل تظن أن الوقت مناسب للنوم الآن؟

نظر إليه القائد للحظة، قبل أن يبتسم قائلاً:

- ربما بعد قليل يا سيدي.

صمت الرئيس للحظة، قبل أن يبتسم بدوره، ويتجه ليتخذ مجلسه، ورجال الإعلام يدلفون إلى الداخل برفقة رجال الحراسة..

كان واضحًا أن الرئيس في طريقه لتفجير مفاجأة قوية..

مفاجأة ستقلب الموازين رأسًا على عقب..

كل الموازين.

* * *

8- الضربة

توسطت الشمس كبد سماء (سيناء)، وتناهى إلى الأسماع صوت انفجارات تتوالى من بعيد، وفي مبنى القيادة، اجتمع رجالات الحكم، مع اللواء (عصمت العدواني) القائد العسكري المؤقت، وشيوخ القبائل..

وأرهف الجميع سمعهم للقائد العسكري، وهو يقول بصرامة:

- العدو أبرز عن أنيابه يا سادة، وبمنتهى الخسة والنذالة، وسط تلك الكارثة البيئية التي نشهدها.. ولقد اجتمعت بكم اليوم، لأخبركم أن المعركة اليوم معركة وطنية، سنحتاج فيها إلى كل جهد ومساعدة.. الجيش مشتت بين أرجاء البلاد يعمل على حمايتها، وضبط النظام، والقوات المتاحة في سيناء قليلة وإمكانياتها أقل

مما هو متاح لأعدائنا.. باختصار، يجب أن نساند بعضنا البعض في مواجهة العدو.

نهض الشيخ (عربي) كبير شيوخ قبائل (سيناء) قائلاً:

- سيدي.. فقط أخبرنا بالمطلوب منا تقديمه من مساعدة، ولا داعي لهذه الخطبة العصماء، في ظل الظروف الحالية.. نحن مصريون، ولسنا أغرابًا تعمل على إقناعهم .

أومأ اللواء (عصمت) برأسه إيجابًا وهو يقول:

- أعلم يا شيخ (عربي).. وكلي يقين من ذلك.

نهض أحد الشيوخ قائلاً:

- في الوقت الذي نتحدث فيه الآن، شباب ورجال قبائلنا، يتصدون للعدو، جنبًا إلى جنب مع رجالكم.. والنساء يقمن بالدور الذي يمكنهن، لمواجهة آثار العاصفة، لتتفرغوا أنتم للمعركة.. كل ما لدينا من مؤن

وعتاد، هو لكم.. أخبرونا ماذا يمكننا أيضًا، وسنفعله، فداءً للوطن.

صمت اللواء (عصمت) لحظة، قبل أن يقول:

- بارك الله فيكم.. الواقع أن لدينا خطة للقضاء على الهجوم تمامًا، لكن..

صمت لحظة، قبل أن يستطرد بصوت، حاول أن يدفع فيه كل قوته وحزمه، قائلاً:

- لكن التضحية ستكون كبيرة.

صمت الجميع لحظات، قبل أن يتبادل الشيوخ نظرات صامته، تقدم بعدها الشيخ (عربي) خطوتين، وهو يقول:

- مهما كانت التضحية، فباسم أبناء سيناء، أقول لك، نفذ على بركة الله.. دعونا نذيق هؤلاء الأوغاد الملاعين مرارة الهزيمة مرة أخرى، كما فعلنا في أكتوبر المجيد.. دعونا نلقنهم معنى غضبة المصريين حتى لو كانت الظروف كلها ضدهم.

نهض الشيوخ جميعًا بعد قوله هذا، وتمتمات التأييد تتوالى منهم، فتبادل القادة النظرات مع اللواء (عصمت)، الذي تطلع إليهم للحظات في فخر واعتزاز، قبل أن يلتقط هاتفه، وضغط زرًا فيه، وهو يقول:

- بعد ذلك، لم تتبقَ سوى موافقة القيادة.. رغم كل شيء، نحن لا زلنا دولة لها قواعد.

أجرى حديثه السريع مع وزير الدفاع، دون أن يبدو على وجهه أي تغير، يستشف منه الشيوخ ردود الفعل، قبل أن يغلق المسماع، وينظر إليهم لحظات، ثم غمغم:

- القيادة رفضت أن نقوم بأي شيء، سوى صد الهجوم..

ارتفعت الأصوات مستنكرة، إلا أنه أشار إليهم، وهو يتابع:

- القيادة تطالبنا بالصمود لساعة واحدة فقط..

ثم ابتسم قائلاً:

- لديهم خطة بديلة.

مع ابتسامته المطمئنة، ارتفع هتاف الشيوخ، وتنهد القادة في ارتياح، وغمغم الشيخ (عربي):

- الله أكبر.. عمار يا (مصر).

على حين أشار إليهم اللواء (عصمت) ليجلسوا، وأشار إلى أحد ضباطه بأن يدير التلفاز..

وعلى الشاشة، طالعهم وجه بعث في نفوسهم المزيد من الراحة..

وجه الرئيس، يلقي خطابًا آخر.

* * *

"(عصام)..أسرع.. الرئيس على التلفاز"

أسرعتُ ألبي نداء (زهران)، وأنا أهتف بدهشة:

- الرئيس؟.. من أي دولة يتحدث؟

أشار لي بالصمت، وهو يزيد من درجة الصوت، فجلست إلى جواره أتابع الرئيس، الذي بدا صورة مجسمة للصرامة والقوة، وهو يقول:

- .... لكني لم أغادر أرض (مصر) ولم يكن بمقدوري أن أفعل.. أنا أتحدث الآن إلى الشعب وإلى العالم كله من مقر طوارئ خاص، لأطمئن الجميع أن القيادة الشرعية للبلاد لا زالت تؤدي واجبها، وأن الحكومة بأكملها على اتصال وتنسيق دائم ببعضها البعض.. آثار العاصفة، يتم حاليًا تلافيها، والعمل على دفن جثث الموتى، ومعالجة المصابين.. صحيح ان الأمر مرهق ويستغرق وقتًا، إلا أننا قادرون عليه بإذن الله..

أما الهجوم غير المبرر على الأراضي المصرية، والذي ادعت السلطات الإسرائيلية أنه جاء لحماية أراضيها، فهو أمر لن يمر.. ولن أتهاون في حق الوطن.. وسيتم اتخاذ إجراءات سياسية بعد إعادة الأمور إلى ما

كانت عليه.. أما الآن.. فأنا أطالب القيادة الإسرائيلية بسحب قواتها فورًا من أرض (سيناء)، دون قيد أو شرط.. وإلا فسأضطر لإصدار الأوامر لقادة الجيش، باستخدام الأسلحة الخاصة..

قطب (زهران) حاجبيه، وهو يكرر:

- أسلحة خاصة؟

واصلتُ متابعة الرئيس باهتمام وهو يقول:

- لقد تصور البعض أن (مصر) صارت لقمة سائغة، ونسوا أن كل مستعمر مر بها، لم يعمر فيها طويلاً.. نسوا أن هناك رجالاً في (مصر) نذروا حياتهم لها، وللدفاع عنها..

ومن مقر الطوارئ المؤقت، أعلن للعالم أجمع، أنه إن لم تنسحب القوات "الغازية" خلال ساعة واحدة على أكثر تقدير، فسنقوم بتدميرها كلها..

ابتسم (زهران) بسخرية وقال:

- أي هراء هذا؟..

نظرت إليه بغضب، فتابع وهو يلوح بيده:

- ألا تسمع؟.. أي غرور هذا؟.. كيف سيواجه هذا الغزو من دولة قوية؟

اخترق صوت الرئيس أسماعنا، وهو يتابع:

- قمرنا الصناعي (الهرم الرابع) هو قمر عسكري، محملٌ بأقوى أسلحة العصر.. لم يمكن للعالم كله أن يكتشف ذلك، ولا أن يعلم به، بفضل كفاءة جهاز مخابراتنا.. ومنذ سنوات عديدة يدور في الفلك، دون أن يؤذي أحدًا.. كان الغرض منه الدفاع، ويبدو أنه أوان استخدامه.. واختباره.. ولمن لا يصدق قولي، أرجو أن تزيدوا من انتباهكم للحظة..

ملت للأمام -كما لو كنت سأدلف إلى داخل الشاشة-

على حين اعتدل (زهران) في مقعده باهتمام، واختفت صورة الرئيس من الشاشة، ليحل محلها مشهد القوات الإسرائيلية وهي تحاول اقتحام (سيناء)، والقوات المصرية تتصدى لها في بسالة، يساندها أبناء (سيناء)..

ترقرقت عيناي بالدمع، وغمغمت في حماس:

- ليتني كنت معكم.

نظر إلي (زهران) بحنق، ثم عاد يولي الشاشة اهتمامه، وصوت الرئيس يأتي متابعًا:

- الآن سيتم توجيه ضربة تحذيرية فقط -حفاظًا على الأرواح- لتأكيد مصداقية قولي.

ما أن أتم عبارته، حتى هوت حزمة هائلة من الطاقة من السماء، أثارت انفجارًا هائلاً، ودفعت موجته التضاغطية كمًا كبيرًا من الحوامات والمدرعات والأجساد البشرية بعيدًا، وساد الهرج بين صفوف المهاجمين، مما

منح المدافعون الفرصة، ليهجموا دون أي تردد، في بسالة مدهشة، دون حتى أن يفكروا في أمر الضربة، من أين أتت، على حين تراجعت أمامهم القوات الإسرائيلية في ارتباك، وصوت الرئيس يعلق:

ـ هذا ما فعله أجدادهم في السادس من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين.. التاريخ يعيد نفسه على ما يبدو أيها السادة.

اختفت صورة القتال، وعاد وجه الرئيس يملأ الشاشات، وهو يستطرد:

ـ أرجو ألا نضطر للدفاع عن أنفسنا.. أرجو ألا نضطر لاستخدام أسلحة أخرى، أقوى بكثير.. وأنتم تفهمون معنى كلامي أيها السادة..

المهلة تنتهي بعد سبعة وأربعين دقيقة.. الله أكبر.. والعزة لمصر.

اختفى وجه الرئيس الصارم، وحل محله العلم

المصري وهو يتمايل مع نسائم الهواء، والنشيد الوطني يصدح في المكان، فهتفت وجسدي يرتجف من فرط الحماسة:

- الله أكبر.. الله أكبر..

هب (زهران) من مقعده في غضب، وركل مقعده، مما جعلني أتفاده في حركة غريزية، وهتف:

- هلا كففت عن هذه التصرفات الصبيانية قليلاً؟

نظرت إليه في حيرة، وقلت:

- أنا سعيد بما يجري.. ألا تشعر بما أشعر به، ويشعر به كل مصري.

نظر إلي بنفس الغضب، وهتف:

- كلا بالطبع.. فأنا لي طموحات، لا يخدمها نجاح هذا الرجل في صد العدوان.. ويجب أن تشاركني في هذا.

هببت واقفا أهتف به:

- أي جنون هذا؟.. بل أي طموحات مأفونة تتحدث عنها؟.. تحلم بأن تكون رئيسًا لمصر؟.. يبدو أن التجربة أثرت على عقلك.. لقد احتملت سخافاتك كلها، حتى الآن.. تجربتك المأفونة، ومشاعرك الحقيرة، وطموحاتك اللعينة.. لم يعد بوسعي أن أحتملك أكثر من هذا.. سأغادر هذا المدفن اللعين، الذي تسميه (مقر حكمك).. لا أريد أن أراك بعد اليوم.. هل تسمع؟.. لا أريد.

وبكل المشاعر المتضاربة في أعماقي أسرعت أغادر المكان..

أخرج إلى النور..

أبحث عن أهلي..

أساعد في نجدة الآخرين..

أشعر بالحياة.

* * *

9- السم

لم يمر يومين، إلا وكانت الأمور قد استقرت من جديد..

صحيح أن مأساة كبيرة قد تحققت على أرض (مصر)، إلا أن كل الأمور ستعود -بإذن الله- إلى ما كانت عليه..

لقد انسحبت القوات الإسرائيلية من (سيناء)، وحاولت حكومتها تبرير الأمر، إلا أن الشعب الإسرائيلي خرج في مظاهرات غاضبة، مطالبًا بإقالة رئيس وزرائه..

وفي مرة من المرات النادرة اجتمع مجلس الأمن مطالبًا بالتحقيق في الأمر، وعلى عكس العادة، لم تتقدم (أمريكا) بحق الرفض (Vito) أمام ذلك..

كانت مفاهيم القوة قد تغيرت.

الغازات السامة المنبعثة في الجو، تلاشت تدريجيًا، وتم تصريف المياه الحمضية بوسائل علمية متطورة في زمن قياسي..

الناس بكوا من رحلوا، لكن موقف الصمود الذي اجتاح (مصر) كلها، جعلهم يستوعبون أحزانهم سريعًا؛ ليبدءوا رحلة البناء والتطوير، وقد ارتفع العلم المصري فوق كل منزل، وإلى جواره صورة الرئيس، في حب حقيقي، ومشاعر فياضة..

وفي مبنى الرئاسة، اجتمع الرئيس مع أعضاء الحكومة، يتدارسون الأوضاع الحالية، والإجراءات السياسية الرسمية التي ستتخذها (مصر) تجاه (إسرائيل)..

في الطرقات عادت الابتسامات تعلو الوجوه، والحياة الصاخبة تعلن عن نفسها بقوة.

* * *

رغم كل ذلك، فقد كان التوتر يسود على كل الأجهزة الحكومية، التي تسعى لمواجهة الأمور، وإعادة ضبطها..

من هذه الجهات، كانت وزارة الصحة، التي اجتمع فيها الوزير مع القيادات، و بعض العلماء، وهم يتابعون باهتمام الدكتور (فتحي جاد)، أخصائي علوم السموم، وهو يقول:

- المشكلة الحقيقية أننا لاحظنا تغيرات طفيفة على بعض الحيوانات، بعد انتهاء العاصفة.. لقد أصيب جهازها العصبي باختلال واضح، كما أنها أصبحت متعطشة لـ (العض).. لدرجة أنها إن لم تجد ما تغرز فيه أسنانها، فإن أجسادها هي ذاتها، تكون البديل.

عقد وزير الصحة حاجبيه في توتر، وتابع الدكتور (فتحي) وهو يستطرد:

- الكارثة الحقيقية، أن ينتقل هذا الداء إلى البشر.. نحن لا نعلم بعد طبيعة المسبب لهذا، لكن لا بد من أن

نتخذ خطوات وقائية تجاهه.

سأله الوزير في اهتمام:

- هل أجريتم تحليلات على الدم؟

أومأ الدكتور (فتحي) برأسه إيجابًا، وقال:

- بالتأكيد.. وللأسف النتيجة جاءت إيجابية.. هناك عنصر مجهول، لا نعلم عنه أي شيء.. ربما كان هو المسبب لهذا، ولازلنا نجري تجاربنا عليه.. كما لاحظنا انخفاضًا ملحوظًا في مادة (الهيموجلوبين)، مما يمثل سبب شحوب الأجساد المصابة بالداء.

صمت الوزير، وأخذ ينقر بأصابعه لحظات على منضدة الاجتماعات، ثم سأله:

- ما هي احتمالية انتقال هذا الداء للبشر؟

مط الدكتور (فتحي) شفتيه في أسف، وهو يقول:

- نسبة مرتفعة للأسف..

سأله الوزير بصرامة:

- كم بالضبط يا دكتور؟

أجابه بسرعة:

- حوالي ثلاثة وستون بالمائة يا سيدي.

اتسعت عيني الوزير في رعب، وهو يتمتم:

- يا إلهي الرحيم.. ثلاثة وستون بالمائة؟.. كيف يمكننا منع هذا؟

تنحنح الدكتور (خالد مرعي) خبير الأمراض المعدية، قبل أن يقول:

- المشكلة يا سيدي أنه ما دامت الحيوانات أصيبت بهذا التسمم الغامض، فلا بد أنه أصاب بعض البشر بالفعل.. أي أن هناك من (يحملون العدوى).. ولا بد عما قريب سيسقط (المصابون بالعدوى).. وستجتاح البلاد موجة من الذعر، والمواطنين لم يعد بمقدورهم مواجهة

خطر آخر بهذه السرعة.

تنهد الوزير في يأس، ولوح بيديه في انفعال، وهو يسأل:

ـ هل من اقتراحات؟

تبادل العلماء النظرات، قبل أن يجيبه الدكتور (فتحي):

ـ أعتقد ليس أمامنا سوى إبلاغ الأجهزة الأمنية يا سيدي، بحيث إذا ظهرت أي حالة، يتم حجر المنطقة كلها صحيًا، حتى نستطيع التوصل إلى علاج.

نظر إليه الوزير لحظات بعين غائمة، وهو يشرد بذهنه بعيدًا في تفكير عميق..

هل سيصاب البشر بهذا الداء؟..

هل؟

* * *

بابتسامة رقيقة مثلها، ألقت (شيرين) تحية الصباح على جارتها ذلك الصباح أثناء مغادرتها المنزل، متوجهة إلى عملها.

تبادلتا حديثًا قصيرًا - قبل أن تغادر (شيرين) إلى موقف الحافلات العامة، في انتظار وصول حافلة السابعة والنصف كي تستقلها، مزجية الوقت بالإطلاع على جريدة الصباح، التي لم تعد تمتلئ سوى بالهراء، أو التفاهات.

زفرت في ملل، وتطلعت حولها في حركة غير ذات معنى، كأنما تتعجل وصول الحافلة، فوقع بصرها على ذلك الشاب الذي يقف إلة جوارها كأنما ينتظر بدوره وصول الحافلة.

كان طويل القامة، نحيل الجسد، له شعر أسود ناعم، ومظهر غير مهندم ..

لم يكن هذا ما لفت انتباهها، لكنه شحوب وجهه الشديد..

كان يبدو كالمصاب بفقر دم حاد..

وكان ينظر إليها، بعينين ذابلتين، نظرة أثارت خيفتها..

أو رعبها..

حاولت تجاهله، وهي تستعد للصعود إلى الحافلة، التي وصلت في تلك اللحظة، فأفسح لها هو الطريق كي تصعد أولاً، فتقدمته بخطوة واحدة..

خطوة واحدة فقط، لم تخط غيرها..

لقد انقض عليها من الخلف، وهو يكشف شعرها الطويل، ليغرز أنيابه -بكل قوته- في عنقها..

أطلقت صرخة فزعة، وهي تحاول المقاومة، لكنها شعرت فقط بأنيابه تزداد تشبثًا بها، ودمائها الحارة تسيل على عنقها وجسدها تخور قواه، والدنيا تغيم أمام عينيها، سمعت صراخ بعض النساء، وشعرت بحذاء سائق الحافلة

يدوسها رغمًا عنه، وهو يوجه السباب لذلك الشاب، محاولاً تخليصها منه..

ثم..

ثم.. أظلمت الدنيا أمام عينيها..

* * *

الآن، بدأت الحياة تعود إلى طبيعتها..

صحيح أن الأمر سيستغرق بعض الوقت، لكن في النهاية، سيعود كل شيء لمصيره السابق.

أكتب هذه السطور الآن من مخبأ الدكتور (زهران).. لقد عدت إليه بعد استقرار الأوضاع، في محاولة مني أن أبقى حتى آخر لحظة (ابن أصل)..

الرجل على كل حال عاملني بشكل طيب، لا يمكنني إنكاره..

من المحتمل أن يكون مخترعًا عبقريًا ومجربًا، لكنه

يجب أن يدرك كونه -في ذات الوقت- الشخص العادي الذي اكتشف مصادفة طريقة إكساب الآخرين قدرة ما..

حاولت أن أقنعه بالعودة من جديد للحياة بشكل طبيعي، لكنه بدا كما لو كان فقد عقله تقريبًا بسبب جبروته.

كلي ثقة أنه سيقوم بآلاف الحماقات, ولن ينتصر على العالم كما يتوهم، وسيسُحق هو نفسه تحت ثقل خارج عن طاقته، التي ألقاها على كاهله.

شاهدت أمامي ليس بطل، بل مأساة..

ولا إنسانًا خارقًا، وإنما إنسانًا يعاني..

قلت بهدوء:

- لا بد أنك عانيتَ كثيرًا!

صرخ في بجنون حقيقي:

- عانيت؟.. أنت أحمق.. أي معاناة تلك؟.. أنا الذي

سأرسم ملامح العهد الجديد.. هل تسمعني؟.. وسأجعلك تدفع ثمن تخليك عني، بعد أن صنعتك.

ضاق صدري، فقلت:

- لم يصنعني أحد.. هل كفرت بخالقك يا رجل؟

لوح لي بيده في غضب، وهو يعمل بجهد في جمع بعض الأغراض، فقلت و أنا أعيد محاولتي لجذب الود تلك:

- هل ستعود للبيت؟

استدار لي وهتف:

- بل سأرحل إلى مكان آخر، لا تعلمه أنت ولا غيرك.. ومن هناك سأعمل لتحقيق حلمي.

نطقها وهو يلوح بذراعيه كـ (آل باتشينو) في فيلم (محامي الشيطان)..

وبدا في عيني كالشيطان نفسه..

لم أحاول أن أعترض طريقه، وقد أدركت أنه لم تعد هنالك فائدة من استمرار الحديث بيننا..

راقبته وهو يغادر، ولم أملك سوى أن أسأل نفسي:

ـ ما الذي سيفعله الآن؟.. وأي ضرر ستحمله تلك الأفعال؟

أعتقد أن الزمن وحده هو الذي سيجيب عن أسئلتي تلك.

* * *